مكتبة الطفل

رودیارد کیبلینغ

کتاب الأدغال

ترجمة: آلاء نحلاوي

t.me/book4kid

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

كتاب الأدغال

الكاتب: **روديارد كيبلينغ**
عنوان الكتاب: **كتاب الأدغال**
ترجمة: **آلاء نحلاوي**

تصميم الغلاف: ناصر العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-32-8
الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019
3000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045
daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

روديارد كيبلينغ

مكتبة
t.me/book4kid
مكتبة الطفل

كتاب الأدغال

ترجمة

آلاء نحلاوي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

المحتويات

الفصل الأول: حكاية **إخوة ماوكلي** ٧

الفصل الثاني: حكاية **صيد كا** ٣٧

الفصل الثالث: حكاية **أيها النمر!** ٧٥

الفصل الرابع: حكاية **الفقمة البيضاء** ١٠٣

الفصل الخامس: حكاية **ريكي تيكي تافي** ١٣٥

الفصل السادس: حكاية **توماي سائس الفيلة** ١٥٩

الفصل السابع: حكاية **خدم صاحبة الجلالة** ١٨٩

الفصل الأول
حكاية إخوة ماوكلي

مكتبة
t.me/book4kid
مكتبة الطفل

أغنية الليل في الأدغال

الصقر ران قد عاد الآن
وأقبل معه الليل،
وانطلق الخفاش مانغ
وحُبِست القطعان في الحظائر والأكواخ
أما نحن فطلقاء حتى طلوع الفجر
هذا أوان الزهو والقوة
بالبراثن والأنياب والمخالب
فاسمعوا النداء!
يا من تتبعون شريعة الأدغال
وليطب لكم الصيد

كانت ليلة شديدة الدفء في تلال سيوني، وضوء القمر يكشف العتمة عن مدخل كهف الذئاب حين استيقظ الذئب من نومه، حك جسده وتثاءب ثم أخذ يمدّد أقدامه واحدة تلو الأخرى ليتخلص

من ثقل النوم في أطرافها، ورقدت الذئبة ملقية أنفها الرمادي الضخم بين جرائها الأربعة التي كانت تتقلب وتصيح.

«آرر، آن أوانُ الصيد مجددًا» قال الذئب، وإذ أوشك على الانطلاق نحو أسفل التل عبرَ ظل كائن ضئيل أشعثِ الذيل عتبةَ الكهف وقال منتحبًا: «أتمنى لك صيدًا موفقًا مباركًا يا سيد الذئاب، وأتمنى حسن الحظ وأسنانًا بيضاء قوية لأطفال ذوي الكرم الذين لا ينسون الجوعى في هذا العالم».

كان ذلك ابنَ آوى المدعوّ تاباكي، تسميه ذئاب الهند «الكنّاس» لأنه يتغذى على فضلات الطرائد، وتكرهه لأنه يتجول في الأرجاء ينشر الأذى ويتقول الأقاويل ويأكل مِزق الجلد من أكوام القمامة في القرية. لكنها تخافه أيضًا، لأن تاباكي معرض للإصابة بالسعار أكثر من أي حيوان آخرَ في الأدغال، حينها ينسى أنه شعر بالخوف من أحد يومًا، فيركض في الغابة ويعض كل شيء في طريقه. حتى النمر يهرب ويختبئ حين يصاب تاباكي الصغير بالسعار، فهو أفظع الأمراض التي تصيب الحيوانات البرية. نحن نسميه داء الكَلَب، لكنهم في الهند يسمونه «ديواني»، أي الجنون.

«ادخل وانظر إذًا»، قال الذئب صارمًا، «لكن لا طعام هنا».

«لا طعام لذئب، ربما» قال تاباكي، «لكن بالنسبة لكائن وضيع مثلي تُعتبر العظمة الجافة وليمة، فمن نحن أبناء آوى، الغيدرلوغ، كي نتخيّر ما نأكل؟» ثم هرول مطأطئًا نحو مؤخر الكهف فوجد عظمة ظبيٍ عليها بعض اللحم وجلس يقضم مشاشتها مبتهجًا.

«كل الشكر على هذه الوجبة الدسمة» قال لاعقًا شفاهه، «ما أجمل هؤلاء الأطفال! وما أكبر أعينهم! وما أصغر سنّهم! أي نعم! لا شكّ أن أبناء الملوك رجالٌ منذ الصِغر».

حسنًا، كان تاباكي يعرف كما الجميع، أن لا شيء أكثر شؤمًا من توجيه المديح للأطفال، لكنه كان مسرورًا لرؤية الذئبين الأم والأب يشعران بالانزعاج، فجلس ساكنًا يتلذذ بالأذى الذي سببه، ثم قال بخبث: «أخبرني شيريخان، الزعيم، أنه غيّر مناطق الصيد الخاصة به، سوف يصيد بين هذه التلال خلال الشهر القادم»، شيريخان هو النمر الذي كان يعيش قرب نهر الواينغانغا على بعد عشرين ميلًا.

«ليس ذلك من حقه!» قال الذئب غاضبًا «وفقًا لقانون الأدغال لا يحق له تغيير أراضيه دون تحذير مسبق. سوف يخيف كل الطرائد على مسافة عشرة أميال، وأنا.. أنا عليّ أن أصيد ضعفين هذه الأيام».

«لم تسمّه أمه «لانغري»، الأعرج، دون سبب» قالت الذئبة بهدوء، «فقد ولد بعرج في قدمه، لذلك لا يصيد إلا الأبقار والثيران. لقد أغضبَ أهالي قرية واينغانغا والآن أتى إلى هنا ليُغضب أهل قريتنا أيضًا، حينها سيفتشون الأدغال بحثًا عنه بعد أن يكون قد ولى هاربًا، وسيتحتم علينا وعلى أطفالنا أن نهرب من نار انتقامهم. حقًا، كم نحن ممتنون لشيريخان!»

«هل أخبره بمدى امتنانكم؟» قال تاباكي.

«اخرج!» زجره الذئب، «اخرج واذهب للصيد مع سيدك، لقد سببتَ مايكفي من الإساءة هذه الليلة».

«أنا ذاهب» تَمتم تاباكي، «يمكنك سماع صوت شيريخان قادمًا من أدنى الدغل، كان بإمكاني أن أوفر على نفسي عناء إبلاغ الرسالة».

أصغى الذئب فسمع صوتًا قادمًا من أدنى الوادي الذي ينحدر نحو نهر صغير، صوتَ نحيبٍ جافٍ غاضبٍ متحشرجٍ يعلو ويخفت لنمرٍ لم يصطد شيئًا ولا يمانع أن يعرف ذلك كل من في الأدغال.

«الأحمق!» قال الذئب، «كيف يبدأ ليلة الصيد بتلك الجعجعة! هل يظن أن ظباءنا مثل الثيران السمينة في الواينغانغا؟».

«أصغِ! الليلة هو لا يصيد ظباءً ولا ثيرانًا» قالت الذئبة، «بل إنسانًا».

تحول النحيب إلى خرخرة هامسة تبدو كأنها آتية من كل مكان، إنه الصوت الذي يُربك الحطابين والغجر النائمين في العَراء، ويجعلهم يهربون باتجاه فكّي النمر أحيانًا.

«إنسان!» قال الذئب مكشرًا عن أسنانه البيضاءَ كلّها، «هراء! أليس هنالك ما يكفي من الخنافس والضفادع في البِرَك حتى يلجأ لأكل البشر، وفي منطقتنا أيضًا!».

وفقًا لقانون الأدغال الذي لا يأمر بشيءٍ دون سبب، يحظر على أي حيوان أن يأكل الإنسان، إلا حين يصيد لكي يعلم أبناءه كيفية الصيد، وفي تلك الحال يجب عليه أن يصيد خارج أراضي مجموعته أو قبيلته. ذلك لأن قتل الإنسان يعني وصول الرجالِ البيض، عاجلًا أم آجلًا، راكبين الفيلة حاملين البنادق، ومئاتِ

الرجال السمر حاملين صنوجًا وسهامًا نارية ومشاعل، حينها تحل المعاناة على كل من في الأدغال. والسبب في بقاء الصيد محصورًا بين الحيوانات هو أن الإنسان أضعف الكائنات، وهو أعزل ومن الشائن مسه بأذى. ويقال أيضًا -وهذا صحيح- أن آكلي البشر يصابون بالجرب ويفقدون أسنانهم.

علا صوت الخرخرة لينتهي بصيحة ملء حنجرة النمر، «آررر!»، ثم صدر عن شيرخان عواءٌ كليل فقالت الذئبة: «يبدو أنه أخفق، ما الذي حصل؟».

ركض الذئب بضعة خطوات إلى الخارج فسمع شيرخان يغمغم ويتمتم بوحشية وهو يمشي متعثرًا في الأيكة.

«قفز الأحمق على نار مخيم الحطاب فاحترقت قدمه» قال الذئب مزمجرًا، «بصحبته تاباكي».

حركت الذئبة إحدى أذنيها وقالت: «شيء ما يصعد باتجاهنا، كن مستعدًا».

خشخشت الأغصان في الدغل، فانخفض الذئب على قائمتيه الخلفيتين متأهبًا للقفز. لو كنتَ هناك في تلك اللحظة لرأيتَ أروع شيء في العالم، ذئبًا يتراجع في منتصف قفزته. لقد وثب قبل أن يرى علامَ سوف ينقض ثم حاول أن يوقف نفسه، والنتيجة أنه انطلق في الهواء مسافة أربعة أو خمسة أقدام وعاد ليهبط قريبًا من حيث كان.

«إنسان!» صاح «إنه جرو إنسان، انظري!»، وأمامه مباشرة وقف طفل أسمرُ عارٍ بالكاد يقدر على المشي، متمسك بغصن واطئ

ينظر إلى وجه الذئب ضاحكًا، وبدا أصغر وأطرى وأكثر اكتنازًا من أي مخلوق قد يمر بكهف الذئاب في الليل.

«هل هكذا هو جرو الإنسان؟» قالت الذئبة «لم أر مثله من قبل، أحضره إلى هنا».

رغم إطباق فكي الذئب على ظهر الطفل، لم تخدش أسنانه جلد الطفل وهو يضعه بين الجراء، إذ يستطيع الذئب المعتاد على حمل جرائه أن يحمل في فمه عند الضرورة بيضةً دون أن يكسرها.

«كم هو صغير وعارٍ وجريء!» قالت الذئبة برقّة والطفل يشق طريقه بين الجراء نحو فرائها الدافئ.

«أها! إنه يتناول وجبته مع الآخرين، إذًا هكذا هو جرو الإنسان. هل سبق أن ضمّت ذئبةٌ جروَ إنسان إلى صغارها؟».

«تردد شيء كهذا على مسمعي، لكن لم يحدث ضمن قطيعنا أو في زماني» قال الذئب، «إنه عارٍ تمامًا من الشعر، وباستطاعتي قتله بلمسةٍ من قدمي، لكن انظري كيف يرفع ناظريه نحونا دون خوف».

حُجِب ضوء القمر عن مدخل الكهف إذ اخترق رأسُ شيريخانَ المربعُ وكتفاه المدخلَ، وتاباكي من خلفه كان يزعق «سيدي، سيدي، لقد دخل إلى هنا!».

«شيريخان يشرفنا بزيارته» قال الذئب، لكن عينيه كانتا تستشيطان غيظًا، «ما الذي يريده شيريخان؟».

«فريستي!» قال شيريخان، «لقد مر جرو إنسان من هنا، ولاذ والداه بالفرار، سلّمه إليّ».

كان شيريخان ثائرًا من ألم قدمه المحروقة بعد أن قفز على نار مخيم الحطاب، لكن الذئب كان مطمئنًا إلى أن مدخل الكهف أضيق من أن يسمح بعبور النمر إلى الداخل، وحتى في موضعه ذاك كانت كتفاه وقدماه الأماميتان مقيدة الحركة لضيق المكان، كحال الإنسان إن حاول القتال داخل برميل.

«شعب الذئاب شعبٌ حر» قال الذئب، «وهو يتلقى الأوامر من قائد القطيع، وليس من قاتل المواشي ذي الظهر المخطط. جرو الإنسان لنا، إن أردنا قتله قتلناه».

«تريد أو لا تريد! ما هذا الحديث عن حرية الاختيار؟ بحق الثور الذي اصطدتُه! هل عليّ أن أقف هنا متطفلًا على وكر الكلاب هذا لأحصل على ما هو من حقي؟ أنا شيريخان، وأنا الذي أتكلم هنا!».

جلجل زئير النمر كالرعد داخل الكهف، فنفضت الذئبة الجراءَ عن نفسها ووثبت إلى الأمام بعينين تبرقان كقمرين أخضرين في الظلام، تواجهان العينين المتوهجتين لشيريخان.

«وأنا راكشا، الداهية، وأنا التي أجيب! جرو الإنسان لي يا لانغري، لي وحدي! ولن يُقتل، سوف يعيش ليرتع مع القطيع ويصيد مع القطيع، وفي النهاية، وانتبه لكلامي يا صياد الجراء العارية، يا آكلَ الضفادع، قاتلَ الأسماك، في النهاية هو الذي سيصطادك أنت!

والآن ابتعد من هنا، وإلا بحق الظبي الذي اصطدتُه، فأنا لا أصيد جياعَ الماشية، سأعيدك إلى أمك يا وحش الأدغال المحروق، بعرَجٍ أسوأ من الذي ولدتَ به! اذهب!».

راقب الذئب ما يحدث مذهولاً، كاد ينسى أيام كانت راكشا في القطيع ولم تلقب بالداهية عبثًا، فقد خاض قتالًا مع خمسة ذئاب أخرى من أجل الزواج بها. كان بإمكان شيريخان أن يواجه الذئب، لكنه لم يكن ليصمد أمام الذئبة، لأنه يعرف أنها الأقوى على أرض القتال وتستطيع أن تقاتل حتى الموت. لذا تراجع ليخرج من مدخل الكهف مزمجراً، و صاح ما إن حرر نفسه: «كل كلب ببابه ينبح، سوف نرى ما سيكون رأي القطيع بتربيتكم جراء البشر، هذا الجرو لي ومصيره بين فكي أيها اللصوص ذوي الذيول الشعثة».

ارتمت الذئبة بين الجراء لاهثة وخاطبها الذئب بجدية: «شيريخان يقول الحق، يجب أن يقدّم الجرو أمام القطيع. هل تصرين على إبقائه؟».

«هل أصر على إبقائه؟!» صاحت، «لقد أتى في الليل عاريًا وحيدًا يتضور جوعًا، ومع ذلك لم يكن خائفًا! انظر كيف اتخذ مكانًا له بين جرائي. كان يمكن لذلك السفاح الأعرج أن يقتله ويلوذ بالفرار إلى الواينغانغا بينما يصيد القرويون بين أوكارنا انتقامًا! وتسألني هل سأبقيه؟ سأبقيه بكل تأكيد. اهدأ يا ضفدعي الصغير، اهدأ يا ماوكلي، سأدعوك الضفدع ماوكلي، وسيأتي وقت تصطاد فيه شيريخان كما سعى لصيدك».

«ترى ماذا سيكون رأي القطيع؟» قال الذئب.

يعطي قانون الأدغال الحق لأي ذئب أن يعيش منفصلًا عن قطيعه بعد الزواج، لكن ما إن تصبح جراؤه قادرة على الوقوف عليه أن يحضرها إلى مجلس القطيع الذي يعقد عادة ليلة اكتمال البدر كل شهر، وذلك لكي يتعرف عليها بقية الذئاب. تستطيع الجراء بعدها أن تتجول بحرية، ولا عذر لأي ذئب بالغ من ذئاب القطيع في قتل إحداها قبل أن تصيد أول ظبي لها، وإن فعلَ فعقوبته الموت حيث يجدونه، وإذا فكرت في الأمر مليًا ستجد أن هذا هو الصواب.

انتظر الذئب حتى أصبحت جراؤه قادرة على المشي، فأخذها ليلة اجتماع القطيع بصحبة ماوكلي والذئبة إلى صخرة المجلس، وهي قمة تل مغطاةٌ بأحجار وصخور يستطيع مئة ذئب الاختباء بينها. تمدد الذئب الأشوس الرمادي العظيم أكيلا على صخرته، وهو الذئب الذي أمضى حتى ذلك الوقت سنة في قيادة القطيع بالقوة والدهاء، لقد وقع مرتين في فخ للذئاب في شبابه، وضُرب مرة وتُرك ليموت، لذا هو يعرف عادات البشر وطبائعهم. جلس أسفلَ الصخرة قريبٌ من أربعين ذئب من كل حجم ولون، بينها ذئاب متمرسة بلون أغبش تستطيع اصطياد ظبي وحدَها، وذئاب سوداء فتية ذات ثلاثة أعوام تظن أنها قادرة على المثل.

في المجلس كان هناك قليل من الكلام، وإذ تتقلب الجراء فوق بعضها وسط حلقة شكلها الآباء والأمهات، يذهب ذئب بالغ بين الفينة والأخرى بهدوء نحو أحد الجراء، يدقق النظر إليه ثم يعود إلى

مكانه بخطوات صامتة. أحيانًا تقوم إحدى الأمهات بدفع جروها نحو ضوء القمر لتتأكد أنه تمت رؤيته، ويصيح أكيلا من فوق صخرته: «تعرفون القانون، تعرفون القانون. أمعنوا النظر أيها الذئاب» وتردد الأمهات القلقات النداء: «أمعنوا النظر أيها الذئاب!».

انتصبت شعيرات رقبة الذئبة إذ قام الذئب أخيرًا ودفع «الضفدع ماوكلي» كما سموه نحو منتصف الحلقة، فجلس يضحك ويلعب ببعض الحصى اللامعة في ضوء القمر.

تابع أكيلا صيحته بالنبرة نفسها دون أن يرفع رأسه عن يديه، «أمعنوا النظر!».

من خلف الصخور تناهى زئير شيريخان يصرخ: «الجرو لي، سلموه إلي، ما شأن شعب الأحرار بجرو البشر؟».

لم ترتجف لأكيلا أذن، ولم يقل شيئًا سوى «أمعنوا النظر أيها الذئاب! ما شأن شعب الأحرار بأوامر تأتي من غريب عنه؟ أمعنوا النظر!».

تعالت جوقة من دمدمات خافتة، وأعاد ذئب ذو أربعة أعوام سؤال شيريخان على أكيلا: «ما شأن شعب الأحرار بجرو البشر؟».

إذا حدث أي خلاف على حق جرو في قبوله من قبل القطيع، يشترط قانون الأدغال أن يكفله اثنان من القطيع ليسا أمه وأباه. «من يكفل هذا الجرو؟» قال أكيلا، «مَن مِن الشعب الحر سيتكلم؟» لم يأتِ جواب، واستعدت الذئبة لقتال تعرف أنه قد يكون الأخير، إن وصلت الأمور حد القتال.

نهض بالو، الدب البني الكسول، على قدميه، وهو المخلوق الوحيد المسموح له حضور اجتماع القطيع. إنه بالو العجوز الذي يعلم جراء الذئاب قانون الأدغال، ويتجول فيها بحرية لأنه لا يأكل سوى الجوز والجذور والعسل.

«جرو البشر.. جرو البشر؟» قال، «أنا أكفله، لا يأتي أذى من جرو البشر. أنا لم أوهب لسانًا فصيحًا لكنني أقول الحقيقة، دعوه ينضم للقطيع ويُقبل مع الآخرين وسأعلمه بنفسي».

«نحتاج لشخص آخر بعد» قال أكيلا، «لقد تحدث بالو معلم الجراء الصغيرة، من يضم صوته إليه؟».

هبط ظل أسود على حلقة الذئاب تبين أنه الفهد باغيرا، فراؤه أسود تمامًا كالحبر وعلامات جلد الفهد تظهر في الضوء مثل حرير مموج. الكل يعرف باغيرا ولا أحد يجرؤ على الوقوف في طريقه، فهو أدهى من تاباكي، جسور مثل ثور بري وجامح مثل فيل جريح، لكن له صوتًا ليّنًا كعسلٍ بريّ يقطر من غصن شجرة، وفراءً أنعم من الريش.

«أي أكيلا، وأنتم ياشعب الأحرار، ليس لي حق في حضور مجلسكم، لكن قانون الأدغال يقول إن حدث خلاف على قبول جرو جديد، يمكن أن تفتدى حياة الجرو بثمن، ولا يحدد القانون من يحق له أن يقدم هذا الثمن. هل أقول الصواب؟».

«صحيح! صحيح!» قالت الذئاب الشابة والجائعة دومًا، «اسمعوا باغيرا، يمكن أن يفتدى الجرو، إنه القانون».

«أعرف أن لا حق لي بالكلام هنا لذا أطلب الإذن منكم لأتكلم».

«تكلم إذًا»، صاح عشرون صوتًا.

«قتل جرو عارٍ عمل مخزٍ، ثم إنه يمكن أن يكون عونًا لكم حين يكبر. لقد تكلم بالو بدوره وأنا أضيف إلى كلمته فديةً ثورًا سمينًا قُتل حديثًا، موجودًا على بعد نصف ميل من هنا، إن قبلتم جرو البشر حسب القوانين. هل تقبلون؟».

علا لغط أصوات كثيرة تقول: «ما المهم؟ سوف يموت في أمطار الشتاء، سوف يحترق في الشمس، ما الضرر الذي يمكن لضفدع عارٍ أن يلحقه بنا؟ دعوه ينضم للقطيع، أين هو الثور يا باغيرا؟ اقبلوا انضمام الجرو».

ثم عادت صيحة أكيلا «أمعنوا النظر! أمعنوا النظر أيها الذئاب!».

ظل ماوكلي منشغلًا بالحصى ولم يلحظ قدوم الذئاب واحدًا تلو الآخر للتعرّف عليه. وأخيرًا هبط الجميعُ التلَّ قاصدين الثور الميت، ولم يبق سوى أكيلا وباغيرا وبالو وعائلة ماوكلي، أما شيريخان فقد ظل زئيره الغاضب يجرح سكون الليل لأن ماوكلي لم يسلّم إليه.

«ازأر الآن كما تريد» همس باغيرا، «إن لم يجعل هذا الشيء العاري زئيرك يتحول إلى نواح فلست أعرف شيئًا عن البشر».

«لقد فعلنا حسنًا» قال أكيلا «إن البشر وأبناؤهم حكماء، ويومًا ما سيصبح عونًا لنا».

«صحيح، سيكون عونًا لنا في وقت الحاجة، فلا أحد يستطيع أن يقود القطيع إلى الأبد» قال باغيرا.

ظل أكيلا صامتًا، يفكر بالوقت الذي يأتي على كل قائد لكل قطيع يفقد فيه قوته ويزداد وهنًا حتى تقتله الذئاب ويحل محله قائد آخر يؤول في النهاية إلى المصير نفسه.

«خذوه معكم» قال أكيلا للذئب «وعلموه كما يليق بواحد من شعب الأحرار».

هكذا قبلت ذئاب سيوني انضمام ماوكلي إلى القطيع مقابل حياة ثور وبكفالة من بالو. والآن نستطيع أن نتخطى عشرًا أو إحدى عشرة سنة كاملة حظي فيها ماوكلي بحياة رائعة بين الذئاب، لأنها لو كتبت ستملأ كتبًا عديدة. لقد كبر بينهم، لكنهم أصبحو ذئابًا بالغة قبل أن يصبح صبيًا. علمه أبوه الذئبُ الصيدَ ومعاني الأشياء في الأدغال، فكل خشخشة في العشب، كل نفس من هواء الليل الدافئ، كل صوت للبوم فوق رأسه، كل خدش يحدثه مخلب خفاش يحط على جذع شجرة، وكل رشة ماء من كل سمكة تقفز في البركة تعني له كما يعني المكتب بالنسبة لرجل الأعمال.

حين يفرغ ماوكلي من التعلم كان يستلقي خارجًا في الشمس وينام، ثم يأكل ثم ينام مجددًا. وإن شعر بالحر أو اتسخ سبحَ في إحدى البرك في الغابة، وإن اشتهى العسل تسلق الشجرة ليأخذه، فقد أخبره بالو أن العسل والجوز لذيذان مثل اللحم النيء، وعلمه باغيرا كيف يتسلق الأشجار، إذ كان يستلقي على أحد الأغصان

وينادي: «اتبعني يا صديقي الصغير»، في البداية كان ماوكلي يتعلق بالجذع مثل حيوان الكسلان، لكن من ثم أصبح يندفع بين الأغصان بجرأة قرد.

لقد حضر الاجتماع عند صخرة المجلس أيضًا، وهناك اكتشف أنه إن حدق طويلًا بأي ذئب يضطر الذئب أن يخفض بصره، لذا أصبح يحدق لمجرد التسلية. وأحيانًا كان يخرج الأشواك الطويلة من أكفّ أصدقائه، فالذئاب تتألم بشدة من الأشواك والحروق في جسدها.

اعتاد أن يذهب ليلًا نحو أسفل التل حيث الأراضي الزراعية، ويراقب القرويين في أكواخهم بفضول، لكنه لم يكن يثق بالبشر لأن باغيرا أراه قفصًا مربعًا ببوابة معلقة إلى الأعلى، مخفيًا بدهاء شديد في الغابة حتى كاد يدخله، وأخبره أن هذا القفص مصيدة.

أحب ماوكلي الذهاب مع باغيرا إلى قلب الغابة المظلم الدافئ أكثر من أي شيء آخر، لينامًا طوال النهار ثم يراقب باغيرا أثناء الصيد في الليل. كان باغيرا يصطاد كل مايجده حين يشعر بالجوع، وماوكلي يفعل المثل باستثناء شيء واحد، فما إن وصل إلى سن تؤهله لفهم الأمور أخبره باغيرا ألا يصيد الماشية لأنه دخل القطيع بفدية هي حياة ثور.

«كل الأدغال لك، وبإمكانك صيد أي شيء تقدر عليه» قال باغيرا، «لكن احترامًا للثور الذي افتداك عليك ألا تصيد أو تأكل أي فرد من الماشية صغيرًا كان أم كبيرًا. هذا قانون الأدغال» وامتثل ماوكلي بإخلاص.

لقد كبر واشتد عوده كأيّ صبي غافلٍ عن دروس الحياة، خاليًا من كل قلق سوى قلقه بشأن ما سيأكل.

أوصته أمه مرارًا ألا يثق بشيريخان، وأخبرته أن عليه أن يقتله يومًا ما، ورغم أن أي ذئب يافع كان سيضع تلك النصيحة نصب عينيه، نسيها ماوكلي لأنه مجرد صبيّ، صبيّ يسمي نفسه ذئبًا لو كان يتكلم أيًا من لغات البشر.

كثيرًا ما اعترض شيريخان طريق ماوكلي في الأدغال بعد أن تقدمت السن بأكيلا ووهنت قواه، وأصبح النمر الأعرج رفيقًا لذئاب القطيع الأصغر سنًا، التي تتبعه طمعًا ببقايا الفرائس، وهذا ما لم يكن أكيلا ليسمح به لو أنه فرض سلطته كما يجب. كان شيريخان يتملقهم ويعجب من قبول «صيادين أقوياء» مثلهم قيادة قطيعهم من قبل ذئب محتضر وجرو بشري. «قيل لي أنكم في المجلس لا تجرؤون على النظر في عينيه»، يقول لهم شيريخان ذلك فيزمجرون ويقشعرّون غيظًا.

علم باغيرا بعضًا مما يدور فقد كانت له عيون وآذان في كل مكان، وقد ردد على سمع ماوكلي مرارًا أن شيريخان ينوي قتله يومًا ما. لكن ماوكلي يضحك لسماع ذلك ويقول «لدي القطيع إلى جانبي، ولدي أنت وبالو، فهو يستطيع رغم كسله أن يوجه بعض اللكمات من أجلي. لم الخوف إذًا؟».

في إحدى الأيام شديدة الدفء إذ كانا في قلب الأدغال وماوكلي مستلقٍ يسند رأسه على جلد باغيرا الأسود المدهش، خطرت لباغيرا

فكرة بسبب شيء ربما سمعه من القنفذ إكّي، فسأل ماوكلي: «اسمع يا صديقي الصغير، كم مرة قلت لك أن شيريخان هو العدو؟».

«بعدد حبات الجوز على تلك النخلة» قال ماوكلي الذي لم يكن قادرًا على العد بطبيعة الحال، «وإذًا؟ أشعر بالنعاس يا باغيرا، وشيريخان طويل الذيل كثير الكلام، مثل الطاووس ماو».

«لكن ليس هذا وقتًا مناسبًا للنوم، بالو يعرف وأنا أعرف والقطيع كله يعرف، حتى الغزال الشارد يعرف ذلك، حتى أن تاباكي قال لك الشيء نفسه».

«هاها! لقد جاء تاباكي إليّ بكلام فظ قبل مدّة وقال أنني جرو عارٍ غير قادر على إخراج حبة فستق من الأرض، لكنني أمسكته من ذيله ولوحت به مرتين ثم أطحت به على شجرة نخيل لأعلمه بعض الأدب».

«كان ذلك تصرفًا طائشًا، رغم أن تاباكي يحب الأذى إلا أنه يمكن أن يقول شيئًا مهمًا بالنسبة لك، لذا عليك أن تفتح عينيك جيدًا يا صديقي الصغير. لن يجرؤ شيريخان على المساس بك داخل الأدغال، لكن تذكر جيدًا أن أكيلا مسنّ وسيأتي يوم ليس ببعيد لن يقدر فيه على صيد الظباء، عندها لن يستمر بقيادة القطيع. وقد تقدمت السن بكثير من الذئاب التي تعرفت إليك حين أحضرت إلى المجلس، أما الذئاب الصغيرة فترى أن جرو الإنسان لا مكان له في القطيع، وأنت ستصبح رجلًا قريبًا».

«وما قيمة الرجل بعيدًا عن إخوته؟ لقد ولدتُ في الأدغال

وامتثلت لقانونها، وما من ذئب في القطيع لم أنتزع شوكة من كفيه بيديّ، بالطبع هم إخوتي!».

مد باغيرا رقبته وأغمض عينيه نصف إغماضة وقال: «تحسس أسفل فكي يا صديقي»، وضع ماوكلي يده السمراء القوية تحت ذقن باغيرا الحريرية حيث العضلات القوية المخبأة بالشعر اللماع فوجد بقعة عارية.

«لا أحد في الأدغال يعرف أنني أنا، باغيرا، أحمل هذه الندبة، ندبة القيد، ومع ذلك يا صديقي، لقد ولدتُ بين البشر وبينهم توفيت أمي داخل أحد الأقفاص في قصر الملك بأوداييور. لهذا السبب قدمت فدية من أجلك في المجلس حين كنتَ مجرد جروٍ صغير عارٍ. نعم، لقد ولدتُ أيضًا بين البشر، ولم أكن قد رأيت الأدغال أبدًا. كانوا يطعمونني من خلف القضبان من وعاء معدني، إلى أن جاءت ليلة شعرت فيها أنني أنا الفهد باغيرا ولست لعبة بأيدي البشر، فكسرت القفل الغبي بضربة واحدة من قدمي ورحلت. ولأنني تعلمت أساليب البشر أصبحتُ أكثر بطشًا في الأدغال من شيريخان، أليس ذلك صحيحًا؟».

«بلى، كل الأدغال تخاف باغيرا، عدا ماوكلي» قال ماوكلي.

«هذا لأنك جرو إنسان» قال باغيرا برقّة، «وكما عدت أنا إلى الأدغال يجب أن تعود أنت إلى البشر في النهاية، إلى من هم إخوتك، هذا إن لم تُقتل في المجلس».

«لكن لمَ سيفكر أي أحد بقتلي؟» قال ماوكلي.

«انظر إلي» قال باغيرا، فنظر إليه ماوكلي بثبات في عينيه، حتى أشاح الفهد بوجهه بعد برهة، «لهذا السبب» قال باغيرا محركًا كفه على الأوراق، «حتى أنا لا أقدر على النظر في عينيك، رغم أنني ولدتُ بين البشر، ورغم محبتي لك يا صديقي الصغير. لكن الآخرين يكرهونك لأن أعينهم لا تقدر على مواجهة عينيك، لأنك حكيم، ولأنك انتزعت الأشواك من أكفهم. لأنك إنسان».

«لم أكن أعرف هذه الأشياء» قال ماوكلي بكآبة وعقد حاجبيه الكثيفين.

«ما هو قانون الأدغال؟ الهجوم أولًا ثم العواء. لكنهم يرون الإنسان فيك بسبب تهورك، لذا كن حكيمًا. أعرف يقينًا أن القطيع سينقلب ضدك وضد أكيلا فور أن يفشل في صيده، فإمساك الظبي يصبح أصعب عليه مرة بعد مرة. سوف يعقدون اجتماعًا عند الصخرة، وعندها سأتدبر الأمر!» قال باغيرا واثبًا، «اذهب بسرعة نحو أكواخ البشر في القرية أسفل الوادي وخذ بعضًا من الوردة الحمراء التي تنمو هناك، هكذا يصبح لديك عند الضرورة حليفٌ أقوى مني ومن بالو ومن أفراد القطيع الذين يحبونك.. احصل على الوردة الحمراء». يقصد باغيرا النارَ بقوله الوردة الحمراء، فلا أحد في الأدغال يدعو النار باسمها، كل حيوان يرتعد منها خوفًا ويبدع مئة طريقة لوصفها.

«الوردة الحمراء؟ تلك التي تنمو خارج الأكواخ عند الغروب» قال ماوكلي، «سأحصل على بعض منها».

«هذا كلام يليق بجرو إنسان» قال باغيرا بفخر، «تذكر أنها تنمو في قدور صغيرة، خذ واحدًا بسرعة وأبقه عندك حتى يحين الوقت».

«مفهوم» قال ماوكلي، «سأذهب، لكن هل أنت واثق يا باغيرا العزيز؟»، لف ذراعه حول عنقه الهائل ونظر في عينيه الكبيرتين «هل أنت واثق أن كل هذا من فعل شيريخان؟».

«بحق القفل الذي انكسر ليحررني، أنا واثق يا صديقي الصغير».

«إذًا، بحق الثور الذي افتداني، سأجعل شيريخان يدفع الثمن ضعفَين» قال ماوكلي وهو يجري مبتعداً.

«هكذا يكون الإنسان» قال باغيرا لنفسه وهو يعود للاستلقاء، «آه يا شيريخان، لا صيد أسوأ حظًا من صيدك ذلك الضفدع قبل عشر سنوات مضت!».

أخذ ماوكلي يبتعد أكثر فأكثر في الأدغال، يركض سريعًا وقلبه يشتعل في صدره حتى وصل إلى الكهف مع ظهور الضباب المسائي، فأخذ نفسًا عميقًا وأطل نحو أسفل الوادي. لم يكن هناك أحد من إخوته، أما أمه فقد عرفت من صوت نفَسه وهي جالسة في عمق الكهف أن شيئًا ما يقلق ضفدعها الصغير فقالت «ما الخطب يا بني؟».

«مجرد ثرثرة من أحد الخفافيش عن شيريخان. سوف أصطاد بين الحقول هذه الليلة» أجابها وانطلق مسرعًا هابطًا بين الأغصان نحو الجدول عند أسفل الوادي.

هناك أحجم حين سمع عواء ذئاب القطيع تقوم بالصيد، ثم سمع صرخة الظبي الذي يلاحقونه، ونخيره حين حاصروه. ثم صاحت الذئاب الأصغر صيحات خبيثة وساخرة «أكيلا! أكيلا! فليُظهر الذئب الأشوس قوته، أفسحوا لقائد القطيع، انطلق يا أكيلا!».

لا بد أن أكيلا هجم وأخفق في الإصابة، لأن ماوكلي سمع إطباقة فكيه ثم عواءه بعد أن ضربه الظبي بقدمه وأسقطه أرضًا. لم ينتظر ماوكلي أكثر وانطلق مسرعًا، حتى تخافتت الصيحات من خلفه وهو يركض نحو الحقول حيث يعيش أهل القرية.

«كان باغيرا يقول الحق» قال لاهثًا وهو يختبئ في كومة من العلف بجانب نافذة أحد الأكواخ، «غدًا يوم حاسم لي ولأكيلا».

ثم قرب وجهه من النافذة فرأى النار في الموقد، ورأى زوجة الفلاح تنهض وتغذيها في الليل بكتل سوداء. وفي الصباح حين لفّ المكانَ ضباب أبيض بارد، أخذ ابنُ الفلاح وعاءً من القش مبطنًا بالتراب، ملأه بكتل من الفحم المشتعل وغطاه بقطعة قماش ثم خرج ليرعى الأبقار في الزريبة.

«هل الأمر بهذه البساطة؟» قال ماوكلي، «إذا قدر جرو مثلي على فعلها إذًا لا داعي للخوف»، ثم مشى حول الزاوية ليصبح وجهًا لوجه مع الصبي، فأخذ الوعاء من يده واختفى في الضباب والصبي يصرخ رعبًا.

«إنهم يشبهونني» قال ماوكلي وهو ينفخ في الوعاء مقلدًا ما فعلته الزوجة، «سيموت هذا الشيء إن لم أرم إليه شيئًا ليأكله»، ثم رمى

ببعض الأغصان و قطع لحاء جاف على الشيء الأحمر المتوهج، وفي منتصف طريقه نحو التل قابل باغيرا وندى الصباح يبرق كاللآلئ على فرائه.

«لقد أخفق أكيلا» قال الفهد، «كان يمكن أن يقتلوه ليلة أمس لكنهم يريدونك أيضًا، وطافوا التل بحثًا عنك».

«كنت بين الحقول، وأنا مستعد، انظر!» رفع ماوكلي وعاء النار.

«جيد! لقد رأيت رجالًا يدخلون غصنًا جافًا إلى ذلك الشيء فتنمو الوردة الحمراء على طرفه مباشرة. ألستَ خائفًا؟».

«كلا، لمَ الخوف؟ ربما كانت ذكراي حلمًا، لكنني أذكر الآن كيف استلقيت بجانب الوردة الحمراء قبل أن أصبح ذئبًا، وكانت دافئة لطيفة».

جلس ماوكلي طوال النهار في الكهف يرعى النار في القدر ويغمس أغصانًا جافة فيها ليرى كيف تبدو، إلى أن وجد غصنًا أعجبه، وفي المساء حين أتى تاباكي إلى الكهف ليخبره بفظاظة بالغة أنه مطلوب عند صخرة المجلس، ظل يضحك متهكمًا حتى ولى تاباكي هاربًا، ثم ذهب ماوكلي إلى المجلس وهو ما زال يضحك.

استلقى الذئب الأشوس أكيلا إلى جانب صخرته إشارةً إلى أن قيادة القطيع شاغرة، وجلس باغيرا بقرب ماوكلي الذي وضع وعاء النار بين ركبتيه، أما شيريخان وأذنابه من الذئاب الراضية بفضلات الطرائد كانوا يتمشون جيئة وذهابًا باختيال، وعندما حضر الجميع

بدأ شيريخان بالكلام، وهو ما لم يكن ليجرؤ على فعله عندما كان أكيلا في أوج قوته.

«ليس له الحق في الكلام» همس باغيرا، «يأمر وينهى كما يريد، لكنه ابن كلب وسيخاف في النهاية».

انتصب ماوكلي واقفًا على قدميه وصاح «يا شعب الأحرار، هل يقود شيريخانُ القطيع؟ ما علاقة نمر بقيادة قطيعنا؟».

«رأيتُ منصب القائد شاغرًا، وقد طلِب مني أن أتكلم» رد شيريخان.

«من قِبل من؟ هل نحن أبناء آوى لنتزلف إلى قاتل المواشي هذا؟ قيادة القطيع تخص القطيع وحده».

تعالت صيحات تنادي «اصمت يا جرو البشر!» وأخرى تقول «دعوه يتكلم، لقد امتثل لقانوننا» وأخيراً هدر صوت الذئاب الأكبر في القطيع «دعو الذئب المحتضر يتكلم».

كان قائد القطيع يدعى الذئب المحتضر لما تبقى من عمره إذا أخفق في الصيد، وهي فترة ليست بالطويلة.

رفع أكيلا رأسه بوهن وقال: «يا شعب الأحرار، وأنتم أيضًا يا أذناب شيريخان، لقد كنت بقيادتكم أحد عشر فصلًا نغدو إلى الصيد ونروح وخلال كل ذلك الوقت لم يؤسر أحدكم أو يصب بأذى، والآن أخفقت في صيدي، وأنتم تعلمون كيف تم ذلك وكيف تم استدراجي لصيد ظبي لم يراقَب جيدًا. تم ذلك بدهاء

لإبراز ضعفي، والآن لكم الحق في قتلي هنا عند الصخرة، لذا أسألكم، من سيأتي ليرسم نهاية لحياة الذئب الأشوس، فحقي في قانون الأدغال أن تأتوا لقتالي واحدًا واحدًا».

ساد صمت طويل، فلم يكن بين الذئاب من يرغب بقتال أكيلا حتى الموت، وزأر شيريخان: «هَه! ما لنا وهذا الأحمق عديم الأسنان؟ إن مصيره موت محتم! لكن جرو البشر هو الذي عاش أكثر من اللازم. يا شعب الأحرار، إن لحمه ملكي منذ البداية، سلموه إلي فقد سئمت مسألة جرو البشر هذه. لقد أزعج الأدغال عشرَ مواسم. سلموه إلي وإلا سأصيد هنا دومًا ولن ينالكم مني عظمة واحدة. إنه إنسان، إنه ابن إنسان وأكرهه حتى العظم!».

ثم أخذ أكثر من نصف القطيع يصيح: «إنه إنسان! إنه إنسان! ما لنا وله؟ فليذهب حيث ينتمي».

«ونجعل كل القرويين ينقلبون ضدنا؟» جعجع شيريخان، «لا، سلموه إلي، إنه إنسان ولا أحد منا يستطيع النظر في عينيه».

رفع أكيلا رأسه مرة أخرى وقال: «لقد أكل مما نأكل، ونام حيث ننام، واستدرج لنا الطرائد، ولم يخرق قانونًا من قوانين الأدغال».

«وأنا افتديته بثورٍ حين تم قبوله في القطيع، وقيمة الثور قليلة لكن كرامة باغيرا شيء يستحق الدفاع عنه» قال باغيرا بصوت رخيم.

«وما قيمة فدية قدمت قبل كل هذه السنين؟ ماذا نفعل بعظام مضى عليها عقد من الزمن؟» جأر القطيع.

«وماذا عن قيمة العهد؟» قال باغيرا وكشرت شفتاه عن أسنانه البيضاء، «وتُدعون في الأدغال شعب الأحرار!».

«لا يمكن لجرو إنسان أن يعيش مع شعب الأدغال» عوى شيريخان، «سلموه إلي».

«إنه أخٌ لنا في كلٍّ عدا الدم، ومع ذلك أنتم مستعدون لقتله هنا!» تابع أكيلا، «الحق يقال، لقد عشتُ طويلًا، لكن بعضَكم يأكل الأبقار وسمعت أن بعضكم الآخر يذهب ليلًا بمشورة شيريخان ويختطف أطفالًا من أعتاب بيوتهم في القرية. لذا أعرف أنكم جبناء وهذا كلامي لكم، إن موتي محتم وحياتي ليست بالقيمة، وإلا كنت قدمتها فداءً لجرو البشر. لكن حفاظًا على شرف القطيع الذي نبذتموه في النسيان حين أصبحتم بلا قائد، أعدُكم إن تركتم جرو البشر يذهب إلى حيث ينتمي ألا أرفع مخلبًا أو أكشر عن ناب في مواجهتكم، سأموت بلا قتال، وهذا سيوفر على القطيع ثلاثة قتلى على الأقل. هذا كل ما أقدر عليه، لكن إن رضيتم جنبتكم عارَ قتلِ أخٍ لكم لم يرتكب ذنبًا، أخٍ كفلناه وقبلناه في القطيع وفقًا لقانون الأدغال».

«إنه إنسان! إنسان! إنسان!» زأر القطيع، ثم بدأ معظمه بالتجمع حول شيريخان الذي أخذ يلوح بذيله.

«أصبح الأمر بين يديك الآن» قال باغيرا لماوكلي، «لا حيلة بيدنا سوى القتال».

انتصب ماوكلي واقفًا يحمل وعاء النار بيديه، ثم مد ذراعيه

وتثاءب في وجه القطيع، لكنه كان في نارين من غضب وحزن، لأن الذئاب بطبيعتها لم تخبره يومًا بمدى كرهها له.

«اسمعوا جميعًا» صرخ ماوكلي، «لا داعي لبربرة الكلاب هذه. لقد قلتم اليوم سبعين مرة أنني إنسان حتى بدأت أشعر أنكم على حق، رغم أنني كنت على استعداد لأكون ذئبًا معكم طوال حياتي. لن أدعوكم إخوتي بعد اليوم، بل كلابًا كما ينبغي لإنسان أن يدعوكم. ما تفعلونه وما لا تفعلونه ليس بقراركم، المسألة بيدي، ولكي نوضح الأمور قليلًا أحضرت أنا، الإنسان، قليلًا من الوردة الحمراء التي تخافونها أنتم الكلاب»، وطرح وعاء النار أرضًا فأشعلت الجمرات الحمر حزمة من الأعشاب اليابسة، وأخذ كل من في المجلس يتراجع برعب أمام النيران المضطربة، ثم أدخل ماوكلي الغصن الجاف فيها حتى اشتعلت فروعه وطقطقت فلوح بها فوق رأسه بين جموع الذئاب.

«أنت الزعيم» همس باغيرا «أنقذ أكيلا من الموت، لطالما كان صديقًا لك».

كان أكيلا ذئبًا شرسًا لم يطلب الرحمة يومًا، لكنه ألقى نظرة بائسة نحو ماوكلي وقد وقف عاريًا وشعره يتحرك فوق كتفيه في ضوء الغصن المشتعل الذي جعل الظلال تتراقص وتضطرب.

«جيد!» قال ماوكلي محدقًا بما حوله ببطء، «أرى أنكم كلاب، وإن كنتُ أنتمي إلى بني الإنسان فسأذهب إليهم، عندها سأهجر الأدغال وسأنسى لغتكم وصحبتكم. لكنني سأكون أكثر رحمة

منكم، ولأنني أخ لكم في كلّ عدا الدم، أعدكم أنني حين أكون بين البشر لن أخونكم كما خنتموني» وركل النار بقدمه فتطاير الشرر، «لن تكون حربٌ بين أي منا في القطيع، لكن هناك دين عليّ أن أسدده قبل أن أذهب» وتقدم نحو شيريخان الذي كان يطرف بعينيه بغباء محدقًا باللهب وأمسك بخصلة الشعر على ذقنه، فتبعه باغيرا ليحميه من سوء قد يحدث، «انهض أيها الكلب» صاح ماوكلي، «انهض حين يتكلم الإنسان، وإلا سأشعل النار بفرائك هذا!».

أطبقت أذنا شيريخان على رأسه وأغمض عينيه لأن الغصن المشتعل كان قريبًا جدًا، «قال قاتل المواشي هذا عند صخرة المجلس أنه يريد قتلي رجلًا لأنه لم يقتلني جروًا. وهكذا إذًا، نضرب الكلاب حين نصبح رجالًا. إن حركتَ شعرة يا لانغري سأحشر الوردة الحمراء في حلقك»، ثم ضرب شيريخانَ بالغصن على رأسه فأخذ ينشج ويئن من الألم والخوف.

«انصرِف الآن يا قط الأدغال المحروق، لكن تذكر أنني في المرة القادمة حين آتي صخرة المجلس كما ينبغي للإنسان أن يأتي، سيكون ذلك وفراؤك على رأسي. أما بالنسبة للآخرين، سيعيش أكيلا حرًا ولن تقتلوه، هذا أمر. ولا أظن أيضًا أنكم ستطيلون الجلوس هنا مدلاة ألسنتكم كأن لكم قيمة أو معنى غير كونكم كلابًا أقودها حيث أريد، انطلقوا!».

تأججت النار على طرف الغصن ولوح بها ماوكلي يمينًا وشمالًا

حول حلقة الذئاب التي أخذت تفر هاربة وتعوي وشرر النار يلسع فراءها.

في النهاية ظل أكيلا وباغيرا وقريب من عشرة ذئاب ممن وقفوا إلى جانب ماوكلي. ثم بدأ شيء ما يؤلم ماوكلي من الداخل كما لم يتألم من قبل، وشهق ليبدأ بعدها بالنحيب ودموعه تجري على وجهه.

«ما هذا؟ ما هذا؟» قال ماوكلي، «لا أرغب بترك الأدغال، ولا أعرف ما هذا الذي يحصل لي، هل أنا أحتضر يا باغيرا؟».

«لا يا صديقي الصغير، هذه دموع كالتي يملكها البشر، الآن أتيقن أنك رجلٌ ولستَ جروًا بعد الآن، ومن الآن فصاعدًا لن تستطيع دخول الأدغال..» قال باغيرا، «دعها تسيل يا ماوكلي، إنها مجرد دموع»، فجلس ماوكلي وبكى وكأن قلبه سينفطر، فهو لم يبك قبلًا في حياته.

«سأذهب إلى البشر الآن، لكن قبل ذلك علي أن أودع أمي»، وذهب إلى الكهف حيث تعيش مع الذئب، وبكى على فرائها والجراء الأربعة تعوي ببؤس.

«ألن تنسوني؟» قال ماوكلي.

«لن ننساك مهما حدث» قالت الجراء، «تعال إلى أسفل التل حين تصبح بشرًا لنتحدث إليك ونذهب في الليل إلى الحقول لنلهو معًا».

«لا تطِل الغياب يا ضفدعي الصغير الحكيم!» قال الذئب، «تعال قريبًا، فأنا وأمك قد هرمنا».

«لا تطِل الغياب يا ابني الصغير العاري» قالت الذئبة، «اسمعني يا ابن البشر، لقد أحببتك أكثر مما أحب جرائي».

«سآتي بالتأكيد» قال ماوكلي، «وسيكون ذلك كي أبسط فراء شيرخان على صخرة المجلس. لا تنسوني! قولوا لمن في الأدغال ألا ينسوا ماوكلي!».

وذهب ماوكلي وحيدًا عند طلوع الفجر ليقابل تلك الكائنات الغامضة المدعوة بشرًا.

أغنية صيد قطيع الذئاب في سيوني

عندما انبلج الفجر صاح الأيل
مرة، مرتين، وثلاث!
ثم وثبت غزالة
من بركة الغابة حيث كان يشرب ظبي
شاهدتُ عند تجوالي لوحدي
مرة، مرتين، ثلاث!
عندما انبلج الفجر صاح الأيل
مرة، مرتين، وثلاث!
وانثنى ذئب عائداً
إلى القطيع المنتظر
حاملاً معه الخبر.
لقد بحثنا، واكتشفنا
وعوينا على أثره.

فيما كان الفجر ينبلج صاح قطيع الذئاب

مرة، مرتين، وثلاث!

إنّ في الأدغال أقدام

لا تترك أثراً

وعيون ترى حتى في الظلام

فانشروا الخبر

واسمعوا واحذروا!

الفصل الثاني
حكاية ميد كا

مبادئ بالو

البقع بهجة النمر، والقرون زهوة الجاموس

فكن نظيفاً لأن قوة الصيّاد تُعرف من تألّق فرائه

فإذا وجدت أن العِجل قد يطيح بك،

والظبي ذا الفراء السميكة قد ينطحك

فلا تتوقف عن العمل لتخبرنا

لأننا نعرف ذلك من قبل عشرة مواسم

لا تؤذِ أشبال الغرباء، ورحّب بهم كأخوة وأخوات

فحتى لو كانوا قصاراَ وسماناً، قد تكون أمّهم دبة

يقول الشبل في زهو عندما يصطاد أولى فرائسه:

«ما من أحد يضاهيني»

إلا أنّ الأدغال واسعة والشبل صغير.

فليتفكّر وليعقل.

كل ما سيُحكى هنا حدث قبل أن يُطرد ماوكلي من قطيع ذئاب سيوني، وقبل أن يتمكن من الانتقام من النمر شيريخان. حدث أيام كان يتعلم من بالو قانون الأدغال، وكان الدب البني الضخم الحازم مسرورًا لحصوله على تلميذ ألمعيّ مثله، فالذئاب الصغيرة لا تتعلم من قانون الأدغال سوى ما ينطبق على قطيعها وقبيلتها، وتترك التعلم بمجرد أن تتمكن من ترديد شعار الصيد: «خطوات صامتة، عيون ترى في الظلام، آذان تسمع همس الريح وأسنان حادة بيضاء، هذه علامات إخوتنا عدا تاباكي والضباع التي نكرهها»، لكن ماوكلي اضطر لتعلم أكثر من ذلك بكثير.

كان باغيرا يتجول في الأدغال أحيانًا ليطمئن على أداء صديقه الصغير، فيسند رأسه إلى جذع شجرة ويخرخر بينما يكرر ماوكلي درسَ اليوم أمام بالو، ولأنه أصبح قادرًا على التسلق والسباحة والركض بمهارة علمه بالو قوانينَ الخشب والماء: كيف يميز الغصن العفن من الغصن السليم، وكيف يتحدث بلباقة مع قفير النحل إن صادف خليته على ارتفاع خمسين قدمًا عن الأرض، وماذا يقول للخفاش مانغ إن أزعج راحته بين الأغصان في النهار، وكيف يحذر أفاعي الماء قبل أن يقفز بينها في البرك. فلا أحد في الأدغال يحب الإزعاج، والجميع مستعد للانقضاض على أي متطفل.

ثم تعلم ماوكلي نداء صيد الغريب، الذي يستخدمه شعب الأدغال ليطلب الإذن إن أراد الصيد خارج أراضيه، ويجب أن يكرر بصوت عالٍ إلى أن يُسمعَ الجواب. يقول النداء وهذه ترجمته:

«أعطني الإذن لأصيد هنا فأنا جائع»، والجواب يكون: «اصطد من أجل الطعام إذًا، وليس من أجل المتعة».

كل ذلك يبين كم اضطر ماوكلي لحفظ أشياء عن ظهر قلب، وقد تعب من تكرار الشيء نفسه مئة مرة. لكن بالو قال لباغيرا مرة بعد أن صفع ماوكلي صفعة جعلته يترك المكان بثورة غضب: «جرو الإنسان يبقى جرو إنسان وعليه أن يتعلم قانون الأدغال كاملًا».

«لكن فكر كم هو صغير» قال الفهد الأسود الذي لو تُرِك له الأمر لأفسد ماوكلي بالدلال، «كيف يحتمل رأسُه الصغير كل كلامك هذا؟».

«هل في الأدغال شيء أصغر من أن يقتل؟ كلا! لهذا أعلمه كل هذه الأمور، ولهذا أضربه بلطف شديد عندما ينسى».

«بلطف! وماذا تعرف أنت عن اللطف يا رأس السندان؟» زمجر باغيرا، «ها هو اليوم مليء بالكدمات من لطفك، هه!».

«أن يمتلئ بالكدمات من رأسه حتى أخمص قدميه بسببي وأنا معلمه الذي يحبه، خيرٌ من أن يبقى جاهلًا فيتعرض للأذى» أجاب بالو بنبرة جديّة، «لقد بدأت بتعليمه نداء الاستغاثة الذي سيحميه في مواجهة شعب الطيور وشعب الأفاعي وكل ما يصيد على أربعة قوائم عدا قطيعه، والآن يستطيع أن يطلب النجدة من أي أحد في الأدغال إن استطاع تذكر هذا النداء، ألا يستحق تعلم ذلك بعض اللكمات؟».

«حسنًا، لنأمل ألا تقتل جرو البشر، إنه ليس جذع شجرة

تشحذ مخالبك الخشنة عليه. لكن ماهو ذاك النداء؟ صحيح أنني أغيث غالبًا ويندر أن أستغيث، لكن مع ذلك يهمني أن أعرف» قال باغيرا ذلك وقد مدّ كفه وأخذ يتأمل مخالبه الحادة اللامعة كالفولاذ.

«سأنادي ماوكلي وهو سيقوله إذا أراد، تعال يا صديقي الصغير».

«رأسي يطنّ كخلية نحل» قال صوت صغير كئيب من فوق رأسيهما، وانزلق ماوكلي على جذع الشجرة غاضبًا ممتعضًا، وأضاف إذ وصل إلى الأرض، «لقد أتيت من أجل باغيرا، وليس من أجلك أيها العجوز السمين بالو!».

«لا فرق لديَ على الإطلاق» قال بالو، رغم أن كلام ماوكلي جرحه وأحزنه، «إذًا ردد أمام باغيرا نداء الاستغاثة الذي علمتك إياه اليوم».

«بلغة أي شعب؟ ففي الأدغال لغات عديدة وأنا أعرفها كلها» قال ماوكلي مسرورًا لحصوله على فرصةٍ للتباهي.

«بل لا تعرف سوى القليل.. أترى يا باغيرا، لا يشكرون معلمهم أبدًا، لم يأت يومًا أي ذؤيب ليشكر بالو المسنّ على ما تعلمه. إذًا، ردد نداء الشعب الصياد أيها العالِم العبقري».

«ليكن دمي من دمك» قال ماوكلي الكلمات بلهجةِ الدب التي يستخدمها كل الشعب الصياد.

«جيد، والآن للطيور»، كرر ماوكلي الجملة وأضاف صفير الصقر في آخرها.

«والآن لشعب الأفاعي» قال باغيرا، فأجاب ماوكلي بفحيح مدهش، ووثب وصفق لنفسه ثم قفز على ظهر باغيرا ليجلس وقدماه إلى جانب واحد، يقرع بكعبيه جلد باغيرا اللامع ويصنع بوجهه أسوأ حركات تخطر بباله لبالو.

«أحسنت! أحسنت! لقد استحقّ تعلمُ ذلك لكمةً صغيرة» قال الدب البني برقّة، «يومًا ما ستتذكرني»، ثم التفت نحو باغيرا ليخبره كيف سأل الفيلَ البري هاثي عن نداء الاستغاثة، فهو يعرف كل هذه الأشياء، فاصطحب هاثي ماوكلي معه إلى إحدى البِرك ليتعلم من أفاعي الماء النداء الخاص بها لأن بالو لا يستطيع أن ينطقه، وكيف أصبح ماوكلي الآن محصنًا نسبيًا ضد أي حادث في الأدغال، فلن يؤذيه ثعبان أو طير أو أي حيوان آخر، «إذًا لا داعي للخوف من أحد» بهذا ختم بالو حديثه وربت بفخر على بطنه الكبير المغطى بالفراء.

«إلا من قبيلته نفسها» همس باغيرا، ثم قال لماوكلي بصوت مرتفع: «الرحمة بأضلاعي يا صديقي الصغير، ما كل هذا الرقص والقفز».

كان ماوكلي يحاول جعل صوته مسموعًا بنتف الفراء من أكتاف باغيرا وركلِه بقوة، وحين انتبه الاثنان إليه سمعاه يصرخ بأعلى صوته «وأنا سيكون لي قبيلتي الخاصة وسأقودها بين الأغصان طوال اليوم».

«ما هذه الحماقة الجديدة أيها الحالمُ الصغير؟» قال باغيرا.

«نعم، وسأرمي الأغصان الجافة والطين على بالو المزعج، لقد وعدوني بذلك، هه!» تابع ماوكلي.

«ووه!»، طوّح كفّ بالو الهائلُ بماوكلي عن ظهر باغيرا، فأحس وهو عالق بين الأصابع الضخمة أن بالو كان غاضبًا.

«ماوكلي!» قال بالو، «كنت تتحدث مع شعب القرود، الباند-رلوغ».

نظر ماوكلي إلى باغيرا ليرى إن كان غاضبًا أيضًا، فوجد عينيه جامدتين كحجري زمرد.

«لقد كنتَ بصحبة شعب القرود الذي يعيش بلا قانون، الشعب الذي يأكل كل شيء، يا للعار».

«عندما ضربني بالو على رأسي تركته وذهبت، فنزل القرود عن الأشجار من شفقتهم علي، ولم يهتم بي أحد آخر» قال ماوكلي وكان لا يزال مستلقيًا على ظهره يتباكى.

«شفقة شعب القرود! كوقوف الماء في منحدر! كبرودة شمس الصيف! ثم ماذا يا جرو البشر؟» زفر بالو.

«ثم.. ثم أعطوني بعض الجوز وأشياء لذيذة لآكلها، و.. وحملوني بين أذرعهم نحو قمم الأشجار وقالوا أنني أخوهم بالدم إلا أنني لا أملك ذيلًا، وأنني يجب أن أصبح قائدهم يومًا ما».

«هؤلاء لا قائد لهم» قال باغيرا، «إنهم يكذبون، لطالما كانوا كاذبين».

«كانوا لطفاء معي وطلبوا مني أن أذهب إليهم مجددًا. لماذا لم يتبناني شعب القرود؟ إنهم يقفون على قدمين مثلي ويقضون النهار باللعب، ولا يضربونني بأكفّهم القاسية. دعني أنهض يا بالو المزعج، دعني أنهض».

«اسمع يا جرو البشر» قال الدب وصوته يجلجل كالرعد في ليلة ممطرة، «لقد علمتك كل قانون يخص كل شعب في الأدغال، عدا شعب القرود الذين يعيشون في الأشجار، فهؤلاء لا قانون لهم، وهم منبوذون، لهم لغتهم الخاصة التي يستخدمون فيها كلمات مسروقة من أحاديث سمعوها وهم يتنصتون ويتلصصون من الأغصان في الأعلى. حياتهم تختلف عن حياتنا، ليس لهم قائد، ليس لهم ذاكرة، وهم يتبجحون و يثرثرون ويتظاهرون بأنهم شعب عظيم يوشك على فعل أعمال عظيمة في الأدغال، لكن سقوط جوزة على الأرض كفيل بجعلهم يضحكون حتى النسيان. نحن في الأدغال لا نتعامل معهم، لا نشرب حيث يشربون، لا نذهب حيث يذهبون، لا نصيد حيث يصيدون ولا نموت حيث يموتون، هل سمعتني يومًا أتكلم عن الباندرلوغ؟».

«كلا» نطقها ماوكلي بهمس فقد عم في الأدغال هدوء بعد أن أنهى بالو كلامه. «لقد نبذَهم أهلُ الأدغال من أفواههم ومن عقولهم، إنهم كثرٌ وأشرار، قذرون وبذيؤون، ويرغبون أن يحظوا بانتباه شعب الأدغال، هذا إن كانت لديهم أية رغبة معينة، لكننا لا نعيرهم انتباهًا حتى عندما يرموننا بالجوز والأوساخ على رؤوسنا».

لم يكن قد أنهى جملته حين انهال من الشجر فوقَهم وابلٌ من الجوز والأغصان، وسمعوا أصوات كحة وولولة، وقفزاتٍ غاضبة عاليًا بين الفروع الرقيقة.

«شعب القرود محظورٌ على شعب الأدغال، تذكر ذلك» قال بالو.

«إنه محظور، ومع ذلك أظن أنه من الأفضل لو حذرك بالو منهم».

«أنا؟ أنا؟ وما أدراني أنه سيلهو مع هؤلاء الحثالة، شعب القردة إذًا! هراء!».

ثم انهالت فوق رؤوسهم قذارة جديدة فأخذا ماوكلي وهرولا مبتعدين.

ما قاله بالو عن القرود صحيح تمامًا، فهم ينتمون إلى قمم الأشجار، ويندر أن تنظر الحيوانات البرية نحو الأعلى، لذا لا احتمال لأحدهم أن يعترض طريق الآخر. لكن القرود إذا صادفوا ذئبًا مريضًا أو نمرًا جريحًا أو دبًّا يبدؤون بمضايقته، ويرمون العصيّ والجوز على أي حيوان لمجرد التسلية وعلى أمل جذب الانتباه، ثم يزعقون ويصيحون أغاني خرقاء لا معنى لها، ويدعون شعب الأدغال لتسلق أشجارهم والعراك معهم، أو يفتعلون مشاجرات عنيفة بلا سبب بين بعضهم ويتركون قتلاهم حيث تجدهم حيوانات الأدغال. دائمًا ينوون تعيين قائد لهم، ووضع قوانين وأعراف تخصهم، ولم ينفذوا ذلك يومًا لأن ذاكرتهم لا تستمر من يوم إلى تاليه، فيعوضون عن ذلك بقولهم «ما يفكر فيه الباندرلوغ اليوم ستحكيه الأدغال غدًا» وذلك كان يطمئنهم إلى حد بعيد.

لا يقدر أي حيوان على الوصول إليهم، وبالتالي لا أحد يلاحظهم، لذلك كانوا مسرورين حين ذهب ماوكلي للعب معهم وسمعوا كم كان بالو غاضبًا. لم يكن في نيتهم فعل المزيد، فالباندرلوغ لا يضمرون النوايا أبدًا، لكن أحدهم أتى بفكرة رآها عبقرية فأخبر الجميع أن ماوكلي سينفعهم إن ضموه إلى قبيلتهم لأنه يستطيع أن ينسج من القش وقاء من الرياح، وإن أمسكوا به سيجبرونه على تعليمهم.

كان ماوكلي ابن حطاب ورث من والده مهاراتٍ كثيرة، واعتاد أن يصنع أكواخًا صغيرة من أغصان متكسرة دون أن يعرف من أين تعلم صنعها. واعتبر القرود ذلك شيئًا مدهشًا بعد أن شاهدوه من أعالي الأشجار، فقرروا أنهم هذه المرة سيعينون قائدًا لهم فعلًا ويصبحون الشعب الأكثر حكمة في الأدغال، لدرجة أن الكل سيلاحظهم ويحسدهم على ذلك. لذا تبعوا بالو وباغيرا وماوكلي في الأدغال بهدوء شديد إلى أن حل وقت قيلولة الظهيرة، ونام ماوكلي بين الدب والفهد وهو يشعر بالخجل الشديد من نفسه، وصمم ألا يعود للتعامل مع شعب القرود أبدًا.

لا يتذكر بعد ذلك إلا أنه أحس بأيدٍ قوية قاسية صغيرة تمسك برجليه وذراعيه وكومةِ أغصان تُرمى في وجهه، ثم وجد نفسه ينظر نحو الأسفل من بين الفروع المهتزة، فأيقظ بالو الأدغالَ بصراخ ملء رئتيه وقفز باغيرا متسلقًا جذع الشجرة مكشرًا عن أسنانه كلها. عوى الباندرلوغ صيحات نصر وتقافزوا متخبطين نحو الأغصان

العليا حيث لا يستطيع باغيرا اللحاق بهم، يصرخون «لقد لاحظنا! لقد لاحظنا باغيرا! كل من في الأدغال يعجب بمهاراتنا وذكائنا»، ثم بدؤوا طيرانهم، وطيران شعب القرود بين قمم الأشجار شيء لا يوصف، فلهم طرق وتقاطعات وانحدارات ومرتفعات يعرفونها، منتشرةٌ على ارتفاع خمسين إلى سبعين أو مئة قدم عن الأرض، وفي هذه الطرقات يتنقلون حتى في الليل إن لزم الأمر.

أمسك اثنان من أقوى القردة ماوكلي من تحت ذراعيه وتأرجحا بعيدًا بين قمم الأشجار قاطعين عشرين قدمًا بوثبة واحدة، ولو كانا يقفزان دون ماوكلي بين أيديهما لتحركا بضعف تلك السرعة لكن ثقل الصبي أعاقهما.

أصيب ماوكلي بغثيان ودوار إلا أنه لم يقاوم متعة الاندفاع بتلك السرعة الجنونية، رغم خوفه من منظر الأرض البعيدة تحته يظهر ويختفي، ورغم إحساسه بقلبه يصبح بين أسنانه عند كل توقف مفاجئ وأرجحة جديدة فوق لاشيء سوى الهواء. يصعد القردان الممسكان به مسرعين نحو قمة الشجرة حتى يشعر ماوكلي بالأغصان الدقيقة العليا تطقطق وتلتوي تحتهما، ثم بصيحات أشبه بالسعال والنباح يرميان نفسيهما عن الشجرة هابطين، ويلتقطان أغصانًا سفلية لشجرة أخرى ليتأرجحا صاعدين مرة أخرى.

للحظاتٍ كان يرى أميالًا وأميالًا من الأدغال الخضراء منبسطةً كما يرى إنسان على رأس سارية أميالًا من البحر ممتدة أمامه، ثم تلسع وجهَه الأغصان والأوراق ليقترب مع مرافقيه من الأرض مجددًا.

إذًا، بصعود وهبوط وصراخ وشهقات عبرت قبيلة الباندرلوغ طرق الأشجار حاملة ماوكلي أسيرًا معها.

في البداية سيطر على ماوكلي خوف من أن يسقطه القرود، ثم بدأ يشعر بالغضب منهم لكنه عرف أن المقاومة ستعرضه للخطر وبدأ بالتفكير بحل آخر. قبل كل شيء عليه أن يترك خبرًا لبالو وباغيرا، فبالسرعة التي يتقدم بها القرود كان متأكدًا من أن صديقيه سيتخلفان عنهم مسافة كبيرة، ولم تكن هناك فائدة من النظر نحو الأسفل لأنه لن يرى سوى قمم الأغصان، لذا نظر إلى الأعلى ورأى بعيدًا في زرقة السماء الصقرَ ران، يحوّم ويدور وهو يراقب الأدغال منتظرًا موت الكائنات. لاحظ ران أن القرود تحمل شيئًا فانخفض بضعة ياردات ليقترب منهم ويرى إن كان حِملهم شيئًا يؤكل، وصفَر متفاجئًا إذ رأى ماوكلي يُسحب نحو قمم الأشجار وسمعَه ينادي «ليكن دمي من دمك»، ثم حجبت الصبيَّ موجةٌ من الأغصان، لكن الصقر تابع طيرانه نحو الشجرة التالية في الوقت المناسب ليرى وجهه الأسمر الصغير يظهر ثانية، «اتبع أثري» صرخ ماوكلي، «وأخبِر بالو من قطيع سيوني وباغيرا من صخرة المجلس».

«باسمِ من يا أخي؟» لم يكن ران قد رأى ماوكلي من قبل، لكنه سمع عنه بالطبع.

«باسمِ ماوكلي، الضفدع، يلقبونني بجرو البشر، اتبع أثري!»، صرخ ماوكلي كلماته الأخيرة وهو يتأرجح في الهواء، فأومأ ران وانسحب بعيدًا نحو الأعلى إلى أن بدا بحجم ذرة غبار، وهناك

توقف ليشاهد بعينيه الثاقبتين تأرجح قمم الأشجار إذ يجتاحها خاطفو ماوكلي.

«لا يمكن أن يبتعدوا كثيرًا» قال الصقر، «لم ينفذوا يومًا ما يقولونه، هؤلاء الباندرلوغ ينبشون دائمًا أشياء جديدة، لكن حدسي يقول لي أنهم هذه المرة نبشوا لأنفسهم ورطة كبيرة، لأن بالو ليس بفرخ طائر وباغيرا ليس مجرد صائد خرفان» ثم بسط جناحيه في الهواء متمايلًا ورجلاه مطويتان تحته وظل ينتظر.

في تلك الأثناء كان بالو وباغيرا في ثورة من غضب وحزن، وتسلق باغيرا كما لم يتسلق من قبل حتى تكسرت الأغصان النحيلة تحت ثقله فانزلق وامتلأت مخالبه بلحاء الشجرة.

«لماذا لم تحذر جرو البشر؟» زأر باغيرا في وجه بالو المسكين، الذي انطلق في هرولة خرقاء على أمل اللحاق بالقرود، «ما فائدة طحنه باللكمات إن لم تحذره من شيء كهذا؟».

«أسرع! هيا! أسرع! لا يزال بإمكاننا اللحاق بهم» لاهثًا قال بالو.

«سرعتك هذه لن تتعِب بقرةً جريحة يا مدرسَ القانون، يا ضاربَ الجراء، إنّ مسافة ميل واحد من هرولتك هذه كفيلة بفتق بطنك. اجلس ساكنًا وفكر! ضع خطة ما، ليس هذا وقت المطاردة، فقد يتركونه ليسقط إن اقتربنا منهم أكثر من اللازم».

«لالولا! ووها! ربما تعبوا من حمله وأوقعوه بالفعل! من يثق بالباندرلوغ؟ آه! آه! ضعوا جثث الخفافيش على رأسي، أطعموني

سودَ العظام، ادفنوني بين الضباع، احشروني في خلية نحل ودعوني ألدغ حتى الموت! فأنا أبئس الدببة! لالولا! واهووا! آه يا ماوكلي! ماوكلي! لِمَ لمْ أحذرك من شعب القرود عوضًا عن تكسير رأسك؟ ربما جعلتْ لكمتي درسَ اليوم يطير من عقله وسيكون الآن وحيدًا في الأدغال دون نداء الاستغاثة»، وأمسك بالو رأسه بكلتي يديه وأخذ يتدحرج يمنة ويسرة منتحبًا.

«لقد استطاع على الأقل قول تلك الكلمات صحيحة أمامي قبل قليل» قال باغيرا نافد الصبر، «بالو، أنت فاقد للذاكرة وللاحترام أيضًا، ماذا سيقول شعب الأدغال لو رآني أحدهم، أنا الفهد الأسود، أتكور على نفسي كالقنفذ إكي وأولول بهذا الشكل؟».

«ولم أكترث بما تظنه الأدغال؟ قد يكون ميتًا الآن».

«لا أخاف على جرو البشر إلا من أن يسقطوه عن الأغصان لمجرد التسلية أو أن يقتلوه إن شعروا بالملل، إنه حكيم وقد تعلم الكثير، وفوق ذلك يملك عينين تخيفان شعب الأدغال، لكنه الآن لسوء الحظ بين أيدي الباندرلوغ، وهم بسبب عيشهم في الأشجار لا يخافون أيًا منا»، لعق باغيرا كفه غارقًا في التفكير.

«كم أنا أحمق! يالي من آكل جذور سمين بني أحمق!» قال بالو ثم بسط جسده فجأة، «ما يقوله الفيل البري هاثي صحيح، كلٌ لديه ما يخاف منه، وهؤلاء الباندرلوغ يخافون الثعبان كا، فهو يستطيع التسلق كما يتسلقون، ويسرق صغار القردة في الليل. مجردُ سماع اسمه يجعل ذيولهم الكريهة تتجمد خوفًا، لنذهب إلى كا».

«وما الذي سيفعله من أجلنا؟ إنه ليس من قبيلتنا كونه بلا أقدام، وله عينان في منتهى الخبث» قال باغيرا.

«إنه عجوز وماكرٌ للغاية، وفوق ذلك هو جائع دائمًا، عِده بالكثير من الماعز» قال بالو متفائلًا.

«إنه ينام شهرًا كاملًا كلما أكل، وربما يكون نائمًا الآن. وحتى لو وجدناه صاحيًا، ماذا لو فضّل أن يصطاد الماعز بنفسه؟» كان باغيرا مليئًا بشكوك حول كا، فهو لا يعرف الكثير عنه.

«في تلك الحال سنحاول أنا وأنت أن نقنعه أيها الصياد المخضرم»، هنا دفع بالو الفهدَ بكتفه البني الشاحب وانطلقا معًا للبحث عن الثعبان كا.

وجداه ممددًا على حافة دافئة في شمس العصر يتأمل جلده الجديد الرائع، فقد كان معتزلًا الأيام العشرة الماضية وهو يغير جلده، والآن أصبح منظره مدهشًا وهو يحرك رأسه ذو الأنف المضلع بخفة على الأرض ويثني جسده البالغ ثلاثين قدمًا على شكل عقد ومنحنيات، ويلعق شفاهه وهو يفكر في عشائه القادم.

«لم يأكل بعد» قال باغيرا بزفرة ارتياح بعد أن رأى جلد كا الجميل المبرقع بالبني والأصفر، «احذر يا باغيرا، فهو يصبح ضعيف البصر بعد أن يغير جلده، ويهاجم بسرعة».

لم يكن كا ثعبانًا سامًا بل كان يزدري الثعابين السامة ويعتبرها جبانة، لكن قوته تكمن في ضمّته، فهو حين يحكم لفات جسمه حول كائن ما، ينتهي كل شيء.

«طاب صيدك!» صاح بالو واقفًا على قدميه، ولأن كا شبه أصم ككل الثعابين، لم يسمع النداء في البداية، فالتف على نفسه وخفض رأسه تحسبًا لأي حادث.

«طاب صيد الجميع» أجاب، «أوه! بالو، ما الذي تفعله هنا؟ طاب صيدك يا باغيرا، واحد منا على الأقل بحاجة للطعام، هل هناك أي أثر لطريدة قريبة؟ أية ظبية أو حتى غزال صغير؟ معدتي فارغة مثل بئر جاف».

«نحن نصطاد بالفعل» قال بالو بلا اكتراث، لأنه يعلم أن عليه ألا يستعجل كا، فهو ضخم جدًا.

«اسمحوا لي أن آتي معكما» قال كا، «فالصيد والهجوم سهل عليكما، لكن أنا.. عليّ أن أنتظر أيامًا بين الأشجار وأتسلق لمدة نصف ليلة أملًا بمجرد قرد صغير. سسس! لم تعد الأغصان كما كانت في شبابي، كلها الآن فروع عفنة وأغصان جافة».

«ربما لوزنك الهائل دور في المسألة» قال بالو.

«لا شك أن طولي هائل، لاشك» قال كا معجبًا بنفسه، «لكن كل ذلك ذنب الأشجار الجديدة، لقد أوشكت على السقوط في آخر صيد لي، كدت أسقط بالفعل! ولأن ذيلي لم يكن ملفوفًا بقوة حول الجذع انزلقت وأيقظ صوت انزلاقي الباندرلوغ فأطلقوا عليّ أفظع الشتائم».

«دودة الأرض الصفراء البليدة» قال باغيرا هامسًا كمن يحاول أن يتذكر شيئًا.

«سسس! هل قالوا ذلك عني بالفعل؟».

«لقد أطلقوا علينا شتائم كهذه الشهر الماضي، لكننا لم نعرهم انتباهًا، إنهم يقولون أي شيء، قالوا (لقد فقدت أسنانك ولا تستطيع مواجهة أي شيء أكبر من طفل صغير، لأنك تخاف من قرون ذكر الماعز)، إنهم وقحون بالفعل معشر الباندرلوغ» تابع باغيرا بلطف.

نادرًا ما تظهر الثعابينُ غضبها، خاصة ثعبان كبير وهَرِمٌ مثل كا، لكن بالو وباغيرا رأيا عضلات البلع على جانبي حلقه تتموج وتنتفخ.

«لقد غير الباندرلوغ مواقعهم» قال بهدوء، «سمعتهم يهتفون بين قمم الأشجار حين خرجت للشمس اليوم».

«هؤلاء الباندرلوغ.. هم من نلاحق الآن» قال بالو، لكن الكلمات خنقته لأن هذه بالنسبة له أول مرة يقر شخص من الأدغال باهتمامه بأفعال القرود.

«لا شك أنها ليست بمسألة صغيرة تلك التي جعلت صيادَين بارزَين في الأدغال مثلكما يذهبان في أثر الباندرلوغ» أجاب كا باحترام وقد ملأه الفضول.

«في الحقيقة، لستُ سوى معلمٍ عجوز، وأحيانًا أخرق، أعلم جراء الذئاب في سيوني قانون الأدغال، وباغيرا هنا..».

«هو باغيرا..» قال الفهد الأسود وأطبق فكيه بقوة، فهو لم يكن يؤمن بالتواضع، «المشكلة يا كا، أن سارقي الجوز قاطعي أوراق النخيل هؤلاء سرقوا منا جرو البشر، ربما سمعت عنه».

«سمعت من إكي أخبارًا عن جرو بشر ينضم إلى قطيع ذئاب، لكنني لم أصدقه، فأشواكه تجعل منه شخصًا متغطرسًا وهو مليء بأنصاف قصصٍ يحكيها بشكل رديء».

«لكن ما سمعتَه صحيح» قال بالو، «إنه جرو إنسان مميز، إنه الأفضل والأذكى والأشجع بين جراء البشر، إنه تلميذي الذي سيجعل اسم بالو مشهورًا في الأدغال، وإلى جانب ذلك فأنا، بل نحن، نحبه يا كا».

«تس! تس!» قال كا ولوح برأسه إلى الأمام والخلف، «لقد عرفتُ الحب من قبل، وسمعت في إحدى الحكايات أن..».

«تلك الحكايات بحاجة لليلة مقمرة نكون فيها قد أكلنا جيدًا لنقدرها حق قدرها» قال باغيرا بسرعة، «جرو البشر الآن في أيدي الباندرلوغ، ونحن نعلم أنهم من بين كل شعب الأدغال يخافون كا فقط».

«إنهم يخافونني أنا فقط، ولهم الحق في ذلك» قال كا، «ثرثارون، حمقى، فارغون، فارغون، حمقى وثرثارون هم هؤلاء القرود، لكن وجود ذلك البشري في قبضتهم ليس جيدًا، إنهم يتعبون من حبات الجوز بعد أن يجمعوها فيرمونها أرضًا، ويحملون غصنًا طوال اليوم بنيّة فعل أشياء عظيمة به ثم يقصفونه نصفين، ذلك البشري في وضع لا يحسد عليه، ثم ألم يدعوني السمكة الصفراء؟».

«دودة، دودة الأرض» قال باغيرا، «وأشياء أخرى أخجل من قولها الآن».

«فلنعلمهم كيف يحسنون الحديث مع سيدهم، سسس! فلننعش ذاكرتهم المشتتة، والآن إلى أين ذهبوا بذلك الجرو؟».

«الأدغال وحدها تعرف، نحو الغرب على ما أعتقد» قال بالو، «ظننا أنك يمكن أن تعرف يا كا».

«أنا؟ كيف؟ أنا أصيدهم إن وجدتهم في طريقي، لكنني لا أسعى لصيد الباندرلوغ، أو الضفادع، أو القذر الأخضر على أي بركة ماء أو ما شابه».

«هيه! هنا، في الأعلى، هيلو! انظر إلى الأعلى، بالو، يا معلم ذئاب سيوني!».

نظر بالو إلى الأعلى ليرى من أين يأتي الصوت، وهناك كان الصقر ران يهبط والشمس تضيء الجوانب المقلوبة لجناحيه المبسوطين. رغم اقتراب وقت نومه إلا أنه طاف الأدغال بحثًا عن الدب وفقد أثره بسبب الخضرة الكثيفة.

«ما الأمر؟» قال بالو.

«لقد رأيت ماوكلي مع الباندرلوغ، وطلب مني أن أخبرك، لقد رأيتهم وراء النهر وهم يحملونه إلى مدينة القرود، إلى البلدة المهجورة، ربما يبقون هناك هذه الليلة أو عشر ليالٍ، وربما ساعة واحدة، لقد طلبت من الخفافيش أن يراقبوا أثناء الليل. هذه رسالتي، طاب صيدكم جميعًا!».

«أتمنى لك معدة ممتلئة ونومًا هانئًا يا ران» صاح باغيرا،

«سأتذكرك في صيدي القادم وسأخبئ الرأس لك وحدك يا خيرة الصقور!».

«لا بأس، فالصبي يعرف نداء الاستغاثة، ولم أكن لأفعل أقل مما فعلت» قال الصقر ذلك وحلق مرتفعًا في دوائر نحو مأواه.

«لم ينس استخدام لسانه» قال بالو وقهقه فخورًا، «إنه لشيء مدهش أن يتذكر كائن صغير نداء الطيور بينما يتم سحبه بين الأشجار».

«لقد ثبتته في عقله بكل قوة! لكنني فخور به» قال باغيرا، «والآن علينا أن نذهب إلى البلدة المهجورة».

يعرف الجميع أين يقع ذلك المكان، لكن القليل من أهل الأدغال ذهب إليه، لأن ما يدعونه البلدة المهجورة كان مدينة قديمة مفقودة ومدفونة في الأدغال، ويندر أن تعيش الحيوانات في مكان عاش فيه البشر قبلهم، إلا الخنزير البري، أما قبائل الصيادين فلا. ثم إن القرود سكنوها لفترة في تنقلاتهم، وأي حيوان يحترم نفسه لن يقترب من ذلك المكان إلا في أوقات الجفاف حين يبقى في أحواض المياه المهدمة قليل من الماء.

«ستستغرق المسافة إلى هناك نصفَ ليلة بأقصى سرعة» قال باغيرا، فبدا بالو في غاية الجدية وقال قلقًا: «سأركض بأقصى سرعة ممكنة».

«لا يمكننا المخاطرة بانتظارك، اتبعنا أنت بينما نذهب أنا وكا بخطوات سريعة».

«بخطوات أو بدونها أستطيع مجاراة قوائمك الأربعة» قال كا بسرعة.

حاول بالو أن يسرع لكنه اضطر إلى الجلوس لاهثًا، لذا تركاه ليلحق بهما، واستمر باغيرا بالعدو خببًا. لم يقل كا شيئًا، ورغم سرعة باغيرا استطاع الثعبان الهائل مجاراته، لكن عند عبورهما النهرَ تقدم باغيرا لأنه قطعه قفزًا بينما اضطر كا للسباحة ورأسه وعنقه الطويل يشقان الطريق أمامه في الماء، ثم عوّض كا الفرق في المسافة حين عادا إلى اليابسة.

«بحق القفل الذي انكسر ليحررني، أنت لست ببطيء»، قال باغيرا وقد بدأ ضوء النهار يخبو.

«أنا جائع» قال كا، «ثم إنهم نادوني الضفدع المرقط».

«دودة، دودة الأرض، الصفراء لأكون دقيقًا».

«لا فرق، لنتابع» قال كا، وبدا وكأنه يسكب نفسه على الأرض سكبًا، يحدد الطريق الأقصر بعينيه الثاقبتين ويتخذه.

في البلدة المهجورة لم يكن القرود يفكرون بأصدقاء ماوكلي على الإطلاق، فقد أحضروا الصبي إلى المدينة الضائعة وكانوا راضين عن أنفسهم بذلك في الوقت الحالي.

لم ير ماوكلي مدينة هندية من قبل، ورغم أن هذه أقرب إلى كومة من الركام بدت رائعة ومدهشة. قام أحد الملوك ببنائها على تل صغير، ولا تزال تستطيع رؤية آثار الطرق الحجرية المؤدية إلى

البوابات المهدمة حيث شظايا الخشب معلقة بالمفاصل الصدئة المهترئة.

غزت الأشجارُ الجدران من الداخل والخارج، وتداعت الأسوار وأصبحت بالية، كما تدلت العرائش على الجدران خارج النوافذ في كتل متشابكة معلقة.

يتوج رأسَ التل قصرٌ عظيم غير مسقوف، تصدع رخام ساحاته ونوافيره واصطبغ بالأحمر والأخضر. أما الحجارة التي رُصفت منها أرض الساحة حيث كان يعيش فيل الملك، فقد دُفعت إلى الأعلى وتفرقت عن بعضها بسبب العشب والأشجار الجديدة. ومن القصر يمكنك أن ترى صفوف بيوت المدينة غير المسقوفة تبدو مثل خلايا نحل فارغة يسكنها الظلام، وترى كتلة حجرية مبهمة الشكل كانت فيما مضى تمثال الساحة التي تلتقي فيها أربعة طرق، ثم ترى الحفر والنقر في زوايا الشوارع حيث كانت الآبار العامة فيما مضى، وأخيرًا تظهر قباب المعابد المحطمة وأشجار التين تنمو على جوانبها.

سمى القرودُ المكانَ مدينتَهم، وتظاهروا بازدراء شعب الأدغال بسبب عيشهم في الغابة. مع ذلك لم يكونوا على علم بهدف بناء هذه المباني ولم يعرفوا كيف يستخدمونها. كانوا يجلسون في حلقة وسط قاعة في جناح مجلس الملك، ويحكّون أنفسهم لطرد البراغيث ويتظاهرون بأنهم بشر، أو يركضون وهم يدخلون ويخرجون من البيوت غير المسقوفة يجمعون قطعًا من الجص والقرميد في زاوية، ثم ينسون أين خبؤوها، فيتشاجرون ويصرخون في جموع متخبطة، ثم

يتوقفون فجأة ويذهبون للعب صعودًا وهبوطًا على شرفات حدائق قصر الملك، وهناك يهزون أشجار الورد والبرتقال للتسلية ورؤية الأزهار والفواكه تسقط أرضًا.

اكتشفوا كل الممرات والأنفاق المظلمة في القصر، ومئات الغرف الصغيرة المظلمة، لكنهم لم يتذكروا يومًا ما رأوه وما لم يروه، فيطوفون منتشرين فرادى أو اثنين أو جموعًا يحكون لبعضهم كيف يتصرفون كالبشر.

كانوا يشربون من أحواض المياه ويعكرونها ثم يتشاجرون عليها، ثم يهرعون جميعًا ليتجمهروا ويصرخوا: «لا أحد في الأدغال أذكى وأفضل وأحكم وأقوى وألطف من الباندرلوغ». وهكذا، يعيدون فعل كل ذلك مجددًا إلى أن يسئموا من المدينة فيعودون إلى قمم الأشجار أملًا في أن يلاحظهم أحد من شعب الأدغال. لم يحب ماوكلي أسلوبَ الحياة هذا ولم يفهمه، فقد كبر وتدرب على اتباع قانون الأدغال.

عند المساء وصل القرود إلى البلدة المهجورة يجرون ماوكلي معهم، وبدلًا من أن يخلدوا للنوم كما تمنى ماوكلي بعد تلك الرحلة الطويلة، أمسكوا بأيدي بعضهم البعض ورقصوا وغنوا أغانيهم الحمقاء. ثم خطب أحدهم فيهم قائلًا أن أسر ماوكلي علامة فارقة في تاريخ الباندرلوغ، لأنه سيعلمهم كيف يحيكون القصب والقش ليصنعوا مايقيهم المطر والبرد، فأخذ ماوكلي بعض حبال العرائش وبدأ يحيكها، وحاول القرود تقليده لكنهم بعد دقائق معدودة

فقدوا اهتمامهم وبدؤوا يشدون ذيول أصدقائهم أو يتقافزون على قوائمهم الأربعة ويقحقحون.

«أريد أن آكل» قال ماوكلي، «أنا غريب في هذا الجزء من الأدغال. أحضروا لي طعامًا أو ائذنوا لي أن أصيد هنا».

ابتعد عشرون أو ثلاثون قردًا واثبين ليحضروا لماوكلي جوزًا وثمار البابايا، لكنهم افتعلوا شجارًا في الطريق، ولم يعد ما بقي من الثمار يستحق عناء العودة بها. كان ماوكلي متألمًا وغاضبًا وجائعًا، وطاف خلال المدينة المهجورة مطلقًا نداء صيد الغريب بين حين وآخر، لكن أحدًا لم يجبه فعرف أنه في مكان سيء بالفعل.

«كل ما قاله بالو عن الباندرلوغ صحيح، ليس لديهم قانون، أو نداء صيد، أو قائد، لا شيء سوى كلمات فارغة وأيدٍ نشالة صغيرة. وإن تضورت جوعًا أو قتلت هنا سيكون كله ذنبي. لكن علي أن أحاول العودة إلى الأدغال. لا شك أن بالو سيضربني، لكن ذلك أفضل من ملاحقة أوراق الزهور السخيفة مع الباندرلوغ».

ما إن اقترب من سور المدينة حتى سحبه القرود مجددًا، يخبرونه أنه لا يدرك كم هو سعيد بالفعل، ويقرصونه لإجباره على شكرهم، لكنه أطبق فمه ولم يقل شيئًا، وذهب مع جموعهم الصاخبة إلى الشرفة فوق أحواض الماء نصف المليئة بماء المطر، المبنية من حجر رملي أحمر. وسط الشرفة كان هناك بيت صيفي من الرخام الأبيض، بني من أجل ملكات غادرن الحياة قبل مئة عام، ونصف سقف البيت المقبب كان مهدمًا، ويسد الممر الذي كانت تعبره الملكات

من القصر إلى البيت الصيفي من تحت الأرض. أما جدرانه كانت مصنوعة من ألواح رخام ذات زخارف تظهر نقشاً مدهشاً على سطح أبيض حليبي مزين بالعقيق الأحمر واليشب واللازورد، وحين يتألق القمر فوق التل يلقي بضوئه من خلال النقوش، فتبرز الظلال على الأرض كأنها مخمل أسود مطرز.

رغم التعب والنعاس والجوع، لم يقاوم ماوكلي الضحك على الباندرلوغ حين بدؤوا يأتون إليه عشرين عشرين، ليقولوا له كم هم عظماء وأقوياء وحكماء، وكم هو أحمق لرغبته بالرحيل عنهم، ويصرخون قائلين: «نحن عظماء، نحن أحرار، نحن رائعون. نحن الأروع في كل الأدغال، كلنا يعتقد ذلك لذا لا بد أن يكون صحيحًا. والآن بما أنك مستمع جديد تستطيع أن تحمل كلامنا معك إلى شعب الأدغال لكي يلاحظونا في المستقبل، سوف نخبرك عن كل صفاتنا المتميزة»، لم يعترض ماوكلي وبدأ القرود يجتمعون بالمئات على الشرفة ليستمعوا إلى المتحدثين ينشدون في مجد الباندرلوغ، وكلما صمت أحدهم ليلتقط أنفاسه يصرخون معًا: «هذا صحيح، كلنا نتفق على ذلك»، وكلما سألوا ماوكلي سؤالًا كان يومئ ويطرف بعينيه ويقول «نعم»، لكن رأسه كان يدور من الضجيج، وقال لنفسه: «لا بد أن تاباكي عض كل هؤلاء القرود فأصيبوا بالسعار. هذا هو حتمًا ما يدعونه ديواني، الجنون. ألا يخلدون إلى النوم أبدًا؟ هناك غيمة كبيرة تقترب وأوشكت أن تحجب القمر، عساها تكون كبيرة كفاية فأحاول الهرب في الظلام، لكنني متعب».

من الخندق المهدم أسفل سور المدينة، كان صديقان عزيزان

يراقبان تلك الغيمة نفسها. يعرف باغيرا وكا خطورة شعب القرود في أعداد كبيرة لذا لم يريدا أية مخاطرة، فالقرود لا يقاتلون إلا مئةً لواحد، ولا أحد في الأدغال يعرض نفسه لاحتمال كهذا.

«سأذهب نحو الجدار الغربي» همس كا، «ثم أنزلُ بخفة حيث يكون انحدار الأرض في صالحي. لا أظن أنهم سيهجمون عليّ بالمئات، لكن مع ذلك..».

«أعرف..» قال باغيرا، «ليت بالو كان هنا، لكن علينا أن نبذل جهدنا، عندما تحجب تلك الغيمةُ القمرَ سأذهب نحو الشرفة، فهم يعقدون مجلسًا أو ما شابه بخصوص الصبي».

«طاب صيدك» قال كا متجهمًا، وانسل مبتعدًا نحو الجدار الغربي، الذي تبين أنه الأقل تضررًا من غيره فتأخر الثعبان بينما وجد لنفسه طريقًا ليتسلق الأحجار.

حجبت الغيمة القمر، وإذ بدأ ماوكلي يتساءل ما الذي سيحدث تاليًا سمع حفيف خطوات باغيرا على الشرفة. لقد صعد الفهد الأسود المنحدرَ بصمت وبدأ بالهجوم، عرف أن لا وقت للعض فأخذ يضرب يمينًا وشمالًا بين القرود الذين جلسوا مشكلين خمسين أو ستين حلقة حول ماوكلي. تعالت صيحات رعب وغضب، وبينما تعثر باغيرا بالأجساد التي تركل وتتقلب تحته صرخ أحد القرود: «إنه واحد فقط، اقتلوه! اقتلوه!» فأطبق على باغيرا حشد هائج من القرود يعضون ويخمشون ويمزقون ويشدون، بينما قبض خمسة أو ستة منهم على ماوكلي، سحبوه نحو أعلى جدار البيت الصيفي

ودفعوه من فتحة القبة المهدمة إلى داخله. أيّ صبي ربي بين البشر كان سيصاب بأذىً شديد فالارتفاع قريب من خمس عشرة قدمًا، لكن ماوكلي سقط كما علمه بالو وحطّ على قدميه.

«ابق هناك» صرخ القرود، «انتظر حتى نقتل أصدقاءك ثم نعود للعب معك، هذا إن تركك شعب السم على قيد الحياة».

«ليكن دمي من دمك» قال ماوكلي بسرعة نداء الثعابين، وسمع حفيفًا وخشخشةً في الحطام حوله فنادى مرة أخرى احتياطًا.

«انتباه! أخفضوا قلنسواتكم» قالت مجموعة أصوات خفيضة. كان البيت الصيفي يعج بأفاعي الكوبرا، فكل خربة في الهند تصبح مسكنًا للأفاعي عاجلًا أم آجلًا.

«لا تتحرك يا صديقي الصغير، فقد تلحِق قدماك بنا الأذى».

وقف ماوكلي ساكنًا قدر الإمكان ينظر من خلال فتحات الجدار المزخرف ويستمع لضجيج القتال الشرس حول الفهد الأسود، صيحات ولغط وتخبط، وعواء باغيرا الأجش العميق وهو يتراجع ويهاجم ويناور ويغوص تحت جموع خصومه. للمرة الأولى في حياته كان باغيرا يقاتل دفاعًا عن حياته.

«لا بد أن بالو قريب، لا يمكن لباغيرا أن يأتي وحده» فكر ماوكلي، ثم نادى بصوت عال: «إلى الحوض يا باغيرا، ازحف نحو الحوض واقفز في الماء، اذهب نحو الماء!».

سمع باغيرا ذلك فطمأنه الصوت إلى أن ماوكلي بخير وأمده

بشجاعة جديدة، فشق طريقه باستماتة خطوةً صامتة بعد أخرى باتجاه الأحواض. ثم دوت من جهة الجدار المهدم الأقرب إلى الأدغال صرخة بالو المجلجلة، ورغم أن الدب العجوز بذل جهده لم يستطع الوصول في وقت أبكر.

«باغيرا، أنا هنا أتسلق بسرعة! ووها! الحجارة تنزلق تحت قدمي، ها أنا قادم أيها الباندرلوغ سيئو السمعة!».

صعد الشرفة لاهثًا فلم يلبث أن اختفى حتى رأسه داخل موجة من القرود، فوقف مباشرة على قدميه، مد كفيه وضم عددًا من القرود على قدر استطاعته ثم بدأ ينهال عليهم بضربات منتظمة، بات بات بات! كخبطات الناعورة على سطح الماء.

سمع ماوكلي صوت ارتطام ثم صوت المياه فعرف أن باغيرا استطاع أن يشق طريقه نحو الحوض حيث لا يستطيع القرود اللحاق به. وقف الفهد ليلتقط أنفاسه ورأسه بالكاد فوق سطح الماء، واصطف القرود ثلاثة صفوف على الدرج الأحمر يتقافزن غاضبين، مستعدين للانقضاض عليه من كل جانب إن خرج لمساعدة بالو.

في تلك اللحظة رفع باغيرا رأسه بيأس وذقنه تقطر ماء، وأطلق نداء الاستغاثة الخاص بالثعابين «ليكن دمي من دمك»، فقد ظن أن كا عاد أدراجه في اللحظة الأخيرة. أما بالو الذي كاد يختنق بين جموع القردة على حافة الشرفة لم يقاوم ضحكة مكتومة حين سمع الفهد الأسود يطلب النجدة.

كان كا قد استطاع اجتياز الجدار وهبط بارتطام قوي أوقع حجارة السور إلى الخندق. لم يرد كا أن يضعف على أرض القتال لذا لف وفرد جسده الطويل مرة أو اثنتين ليتأكد أن كل جزء منه جاهزٌ للحركة.

خلال كل ذلك الوقت استمر القتال مع بالو، وظل القرود يصيحون حول باغيرا في الحوض، أما الخفاش مانغ أخذ يطير جيئة وذهابًا ليحمل أخبار المعركة العظيمة إلى الأدغال، حتى أن الفيل البري هاثي أطلق صفيرًا مدويًا فأيقظ مجموعاتٍ مبعثرةً من القرود في البعيد فأتوا واثبين عبر طرق الأشجار لدعم رفاقهم في البلدة المهجورة، وأيقظ ضجيج القتال كل الطيور النائمة على بعد أميال.

أقدم كا مسرعًا متلهفًا للقتل، وقوة الثعبان في القتال تكمن في الضربة العاتية من رأسه مدعومةً بقوة ووزن جسده. إن استطعت تخيل رمح أو مطرقة وزنها قريب من نصف طن يقودها عقل هادئ رابط الجأش في مقبضها، إذًا تستطيع أن تتخيل كيف هو كا عندما يقاتل. أي ثعبان بطول أربعة أو خمسة أقدام يستطيع أن يوقع رجلًا أرضًا إذا ضربه في صدره بقوة، أما كا فيبلغ طوله ثلاثين قدمًا كما نعرف.

وجه ضربته الأولى نحو قلب الحشد حول بالو، سددها بصمت ولم يكن هناك داع لضربة ثانية، فقد تفرق القرود يصيحون: «كا! إنه كا! اهربوا! اهربوا!».

كبرت أجيال وأجيال من القرود على قصص مرعبة عن كا، يسردها عليهم القرود الأكبر لحثهم على حسن التصرف، إنه لص

الليل الذي يستطيع أن ينسلّ على الأغصان بهدوء كما تنمو الطحالب، ويسرق القرود الأقوى على الإطلاق. إنه كا العجوز الذي يستطيع أن يجعل جسمه يبدو كغصن ميت أو جذع عفن فيخدع حتى أكثرهم ذكاءً إلى أن يلتقطه الجذع! كا هو كل ما يخافه القرود في الأدغال، إذ لا أحد منهم يعرف حدود قدراته، ولا أحد يستطيع النظر إلى وجهه، ولا أحد منهم أفلت من قبضته حيًا.

وهكذا هربوا يرتعدون رعبًا نحو جدران وأسقف البيوت، فتنفس بالو الصعداء، ورغم أن فراءه كان أثخن من فراء باغيرا فقد تأذى بشدة في القتال. ثم فتح كا فمه للمرة الأولى ونطق كلمة واحدة عبارة عن فحيح طويل، فتوقف القرود المسرعون للاختباء في البيوت المهجورة، وتجمدوا خوفًا حتى التوَت الأغصان المثقلة بهم وبدأت تطقطق. وتوقف القرود في البيوت الفارغة وعلى الجدران عن الصياح، فسمع ماوكلي في السكون الذي أطبق على المدينة صوت باغيرا ينفض جسمه المبلل بعد أن خرج من الحوض. ثم تفجر الصخب مجددًا، وأخذ القرود يقفزون من فوق الجدران العالية ويتشبثون بأعناق التماثيل الحجرية الضخمة ويزقحون وهم يمشون متقافزين فوق الأسوار، بينما كان ماوكلي في البيت الصيفي يرقص فرحًا وينظر من خلال الفتحات في الجدار المزخرف ويصفر بطريقة أشبه بصفير البوم معلنًا عن سخريته وازدرائه.

«أخرِجْ جرو البشر من أسره، لم أعد قادرًا على فعل المزيد» قال باغيرا لاهثًا، «لنأخذه ونذهب، فقد يهجمون مجددًا».

«لن يتحركوا حتى آمرهم بذلك، لا تتحركوا سسس!» فحّ كا، وحلّ سكون جديد على المدينة، فقال لباغيرا «لم أقدر على القدوم أبكر يا صديقي، لكنني أظن أنني سمعتك تستغيث».

«ربما، ربما صرختُ أثناء القتال» أجاب باغيرا، «بالو، هل أصبت بأذى؟».

«لست متأكدًا من أنهم لم يفتتوني إلى مئات الدببة الصغيرة» قال بالو، وهو ينفض رجليه بقوة واحدة تلو الأخرى. «ووه! كل شيء يؤلمني. نحن مدينون لك يا كا، مدينون بحياتنا على ما أظن، أنا وباغيرا».

«لا بأس، أين هو البشري الصغير؟».

«هنا، أنا محبوس هنا، لا أستطيع التسلق خارجًا» صاح ماوكلي عبر القبة المهدمة فوق رأسه.

«خذوه من هنا، إنه يرقص مثل الطاووس ماو، سوف يدوس أولادنا» قالت أفاعي الكوبرا في الداخل.

«هاه!» قال كا بضحكة مكتومة، «هذا البشري له أصدقاء في كل مكان. قف بعيدًا أيها البشري، واختبئي أيتها الأفاعي السامة، سوف أحطم الجدار».

دقق كا النظر إلى أن وجد صدعًا حائل اللون في النقوش الرخامية يدل على نقطة ضعف، طرقه برأسه مرتين أو ثلاثًا ليقدر المسافة، ثم ارتفع عن الأرض مسافة ستة أقدام وسدد بكل قوته

حوالي ست ضرباتٍ مباشرة مدمرة، فتكسرت الألواح وتداعت وسط غيمة من غبار وحطام، فقفز ماوكلي عبر الفتحة وارتمى بين بالو وباغيرا مطوقًا عنقيهما الضخمين بذراعيه.

«هل أصبتَ بأذى؟» قال بالو وعانقه برقة، «أنا متألم وجائع ومليء بالكدمات. لكن، ياللهول، لقد آذوكما بشدة يا صديقَي، أنتما تنزفان!».

«ولم يَسلم هؤلاء أيضًا» قال باغيرا لاعقًا شفتيه ونظر إلى قتلى القرود على الشرفة وحول الحوض.

«لا بأس، لا بأس مادمت بخير، آه يا مبهاتي من بين كل الضفادع!» تنهد بالو.

«سوف ننظر في ذلك لاحقًا» قال باغيرا بصوت حاد لم يعجب ماوكلي، «لكننا مدينون لِكا ربحَ هذه المعركة وأنت تدين له بحياتك، اشكره وفقًا لعاداتنا يا ماوكلي».

استدار ماوكلي ورأى رأس الثعبان الهائل يتمايل على ارتفاع قدم فوق رأسه، «إذًا هذا هو البشريّ» قال كا، «جلده طريّ، ولا يختلف كثيرًا عن الباندرلوغ. انتبه لنفسك أيها البشري، كي لا أخلط بينك وبين أحد القرود ذات مساء بعد أن أغير جلدي».

«ليكن دمي من دمك» أجاب ماوكلي، «لقد أنقذت حياتي الليلة، وسيكون صيدي لك إن جعت يومًا ما يا كا».

«أشكرك يا صديقي الصغير» قال كا، ولمعت عيناه، «وما الذي

يصيده صياد جريء مثلك، أسألك لعلي أرافقك حين تخرج للصيد المرة القادمة».

«أنا لا أقتل شيئًا، فأنا صغير جدًا، أنا فقط أستدرج الماعز لمن يَقدر على صيدها، لذا حين تجوع تعال إلي لتتأكد من صحة ما أقول. أنا ماهر استخدام في هاتين (ومدّ يديه)، وإن وقعتَ يومًا في مأزق سأرد لك الدين الذي عليّ، ولباغيرا وبالو أيضًا. طاب صيدكم جميعًا يا أساتذتي».

«أحسنت القول» هدر بالو، فقد عبر ماوكلي عن شكره بشكل رائع.

ربت الثعبان برأسه بخفة على كتف ماوكلي وقال: «قلب شجاع ولسان مهذب، يستطيع هذان أن يمضيا بك بعيدًا في الأدغال أيها البشري. أما الآن فاذهب من هنا سريعًا مع أصدقائك. اذهب واخلد للنوم، فالقمر سيغرب وسيحدث الآن ما لا يحسن أن تراه».

بدأ القمر يغطس خلف التلال، وتجمع القرود المرتجفون على أعالي الجدران والأسوار فبدوا مثل حواف شيء ممزق. نزل بالو نحو الحوض ليشرب وأخذ باغيرا يرتب فراءه، وانسل كا إلى مركز الشرفة وأطبق فكيه بقوة جعلت الصوت يجذب أنظار كل القرود إليه.

«ها هو القمر يغرب، هل هناك ما يكفي من الضوء بعدُ للرؤية؟».

من الجدران تناهى أنين كصوت الرياح بين قمم الأشجار، «نستطيع الرؤية، يا كا».

«جيد، والآن تبدأ الرقصة، رقصة عشاء كا. اجلسوا ساكنين وشاهدوا».

دار كا مرتين أو ثلاثًا دورة كبيرة، يلوح برأسه يمينًا وشمالًا، ثم بدأ يصنع بجسده دوائر وأشكالًا لولبية، ثم مثلثات طرية سائلة تذوب إلى مربعات ومخمسات، ثم كومةً من الحلقات، دون أن يبطئ أو يسرع، أو يوقف همهمة أغنيته المنخفضة. ثم اشتد الظلام حلكة إلى أن اختفت الحلقات المتحركة تمامًا، ولم يبق إلا صوت حفيف حراشفه.

وقف بالو وباغيرا جامدين كتمثالي حجر، حناجرهما تخرخر وشعر رقبتيهما منتصب، وماوكلي يشاهد مذهولًا.

«أيها الباندرلوغ» قال كا أخيرًا، «هل ستحركون قدمًا أو يدًا دون إذن مني؟ تكلموا!».

«لا نحرك قدمًا أو يدًا دون إذنك يا كا».

«جيد! اقتربوا مني جميعًا خطوة واحدة»، ترنحت صفوف القرود متقدمة بغير وعي، وتقدم بالو وباغيرا خطوة ثقيلة إلى الأمام. «أقرب!» فح كا، فتحركوا جميعًا مرة أخرى.

وضع ماوكلي يده على بالو وباغيرا ليوقفهما فجفلا كأنهما أوقظا من حلم، «أبق يدك على كتفي» همس باغيرا، «أبقها هناك وإلا سأذهب إلى كا، آه!».

«ليس سوى العجوز كا يصنع دوائر بجسده وسط الغبار،

لنذهب» قال ماوكلي، وتسلل الثلاثة عبر خرق في الجدار باتجاه الأدغال.

«ووف!» قال بالو ما إن وقف تحت الأشجار الساكنة مجددًا، «لن أجعل من كا حليفًا لي مجددًا» وارتعش جسده بالكامل.

«إنه يعرف أكثر مما نعرف» قال باغيرا مرتعدًا، «لو بقيتُ وقتًا أطول لمشيت داخلًا حلقه بنفسي».

«سيمشي الكثيرون في ذلك الطريق قبل أن يشرق القمر مجددًا» قال بالو، «سيحظى بصيد جيد على طريقته الخاصة».

«لكن ما معنى ذلك كله؟» قال ماوكلي، الذي لم يكن يعرف شيئًا عن قدرة الثعبان على سحر العقول، «لم أر سوى ثعبان كبير يصنع دوائر سخيفة حتى هبط الظلام، وأنفه كان متورمًا تمامًا، هاها!».

«ماوكلي» قال باغيرا غاضبًا، «أنفه كان متورمًا بسببك، مثله مثل أذنيّ ومخالبي وأطرافي. ورقبة بالو وأكتافه مليئة بالعضات بسببك. لن نستطيع أنا أو بالو أن نستمتع بالصيد لعدة أيام قادمة».

«لا بأس، المهم أننا استعدنا جرو البشر» قال بالو.

«صحيح، لكنه كلفنا الكثير من الأذى في وقت كان يمكننا أن نستغله بصيد وفير، كلفنا جروحًا وفراءً، لقد نتفوا نصف شعر رقبتي. وأخيرًا، فقد تأذينا في كرامتنا، تذكر يا ماوكلي أنني أنا، الفهد الأسود، اضطررت إلى طلب النجدة من كا. وقد جعل مني ومن بالو أحمقين كالطيور الصغيرة بسبب رقصة العشاء هذه. كل ذلك

يا جرو البشر، حدث بسبب لعبك مع الباندرلوغ».

«صحيح، هذا صحيح» قال ماوكلي آسفًا، «أنا جرو بشر شرير، وأشعر بالحزن يملؤني من الداخل».

«همم! ماذا يقول قانون الأدغال يا بالو؟».

لم يرد بالو لجرو البشر مزيدًا من المتاعب، لكنه لا يستطيع التحايل على القانون، لذا تمتم: «الأسف لا يغني عن العقاب، لكن تذكر يا باغيرا أنه صغير جدًا».

«سأتذكر ذلك، لكنه ارتكب خطأ، لذا يجب أن يتلقى بعض اللكمات. ماوكلي، هل تود أن تقول شيئًا؟».

«كلا، لقد أخطأتُ فتأذيتَ أنت وبالو، إنه العدل».

أفضل مافي قانون الأدغال أن العقاب يسوي كل الخلافات فلا يعود بعده داعٍ للاحتجاج.

وجه باغيرا بضعة ضربات حانية من وجهة نظره، تلك الضربات لم تكن لتوقظ جراء فهد، لكن بالنسبة لصبي ذو سبعة أعوام كانت مؤلمة بشدة، وعندما انتهت العقوبة عطس ماوكلي ونهض دون أن ينطق بكلمة.

«والآن» قال باغيرا، «اقفز على ظهري يا صديقي الصغير، لنعد إلى البيت»، فألقى ماوكلي رأسه على ظهر باغيرا ونام بعمق شديد فلم يشعر حين تركوه في كهفه.

مكتبة
t.me/book4kid
مكتبة الطفل

أغنية الباندرلوغ

ها نحن ننطلق على أرجوحة من الزهور
في منتصف الطريق إلى القمر الغيران!
ألا تحسدون عصبتنا الوثابة؟
ألا تتمنّون لو كانت عندكم أيدٍ إضافية؟
ألن تحبّوا لو كانت ذيولكم مثل ذيولنا
كقوس (كيوبيد) محنية؟
لقد أغضبناك، ولكن لا بأس
يا أخي صاحب الذيل المتدلي
ها نحن ذا مصطفّون على غصن
نفكّر بالأشياء الجميلة التي نعرفها
ونحلم بالأفعال التي ننوي القيام بها
ونكملها في دقيقة أو اثنتين
سنفعل شيئاً نبيلاً وحكيماً وخيّراً،

بمجرد أن نتمنى أننا نستطيع
لقد نسينا، لكن لا بأس
أيها الأخ صاحب الذيل المتدلي
كل الحديث الذي سبق وأن سمعنا
الخفاش أو الوحش أو الطير يقوله
من ذوات الجلد، الزعانف، الحراشف، أو الريش
كلّهم يثرثرون بسرعة وفي نفس الوقت
ممتاز! مذهل! مرة أخرى!
والآن نتحدث مثل البشر
فلنتظاهر نحن كذلك، لا بأس
أيها الأخ صاحب الذيل المتدلي
إنها حياة شعب القرود
فانضمّ إلى فرقتنا القفّازة التي تقتحم الصنوبرات
وتنطلق بسرعة إلى حيث يتدلى العنب البريّ
بالتخريب الذي نتركه خلفنا،
وبالضجيج النبيل الذي نصنعه
تأكد، تأكد، أننا سنقوم بأفعال عجيبة!

الفصل الثالث
حكاية أيها النمر!

- ما أخبار الصيد أيها الصياد المقدام؟

كان طويلاً وبارداً يا أخي

- وما أخبار الفريسة التي ذهبت لاصطيادها؟

ما زالت تعتلف في الغابة يا أخي

- وأين ذهبت كل تلك القوة التي كنت تتفاخر بها؟

انحسرت من جسدي يا أخي

- وماذا عن سرعتك التي تنقض بها؟

أوصلتني لمخبئي لأموت يا أخي

يجب أن نعود الآن إلى الحكاية الأولى، حين ترك ماوكلي الكهف بعد القتال مع القطيع عند صخرة المجلس ونزل باتجاه الأراضي الزراعية حيث يعيش القرويون. لم يتوقف هناك لأن المكان قريب جدًا من الأدغال، وهو يعلم أنه قد صنع لنفسه أكثر من عدوّ في المجلس، لذا اتخذ الطريق الوعر الذي ينحدر عبر الوادي مهرولًا

بسرعة ثابتة مسافة عشرين ميلًا حتى وصل إلى بلدة لم يكن يعرفها، حيث انفتح الوادي على سهل عظيم تنتشر فيه صخور متفرقة وتشقه الشعاب، على أحد أطرافه تقع قرية صغيرة وفي الطرف الآخر تنحدر الأدغال لتنتهي عند أراضي الرعي فجأة كأنها قُطِعت بفأس.

على امتداد السهل كانت الجواميس والأبقار ترعى، وحين رأى الصبية الرعاةُ ماوكلي ولوا هاربين يصرخون، وعوَت كلاب ضالة صفراء توجد حول كل قرية هندية، لكن ماوكلي تابع المسير فقد كان يشعر بالجوع، ورأى عند مدخل القرية أن حزمة الشوك التي كانت أمام البوابة وقت الفجر قد أزيحت إلى الجانب فقال: «همم!، إذًا فالناس هنا أيضًا يخافون من أهل الأدغال»، فقد صادف مرارًا مثل هذه الحواجز أثناء جولاته الليلية بحثًا عن شيء يؤكل. ثم جلس بجانب البوابة، وحين رأى رجلًا يخرج منها وقف فاغرًا فمه وأشار بيده ليشرح له أنه يريد الطعام. حدق الرجل به برهةً ثم ركض عائدًا في الطريق الوحيد للقرية يصرخ مناديًا الكاهن، وهو رجل ضخم سمين يتوشح البياض وعلى جبهته علامة حمراء وصفراء، فأتى الكاهن إلى البوابة ومعه مئة شخص على الأقل، يحدقون ويتكلمون ويصرخون ويشيرون إلى ماوكلي.

«هؤلاء البشر عديمو التهذيب، لا أحد يتصرف بهذا الشكل إلا القرود» قال ماوكلي لنفسه، ثم رمى بشعره الطويل إلى الخلف وعبس في وجه الحشد.

«ما المخيف في الأمر؟» قال الراهب، «انظروا إلى الندوب على

ذراعيه ورجليه، إنها علامات عضات الذئاب، وهو ليس سوى ابن ذئب هارب من الأدغال».

بالطبع كانت جراء الذئاب تعض ماوكلي بقوة دون قصد أثناء اللعب، فتركت على ذراعيه ورجليه ندوبًا بيضاء، لكنه آخر من يمكن أن يفكر بتسميتها عضات لأنه يعرف المعنى الحقيقي للعض.

«واااه!» قالت بضعة نساء معًا، «ياله من مسكين إنْ عضته الذئاب، إنه صبي مسكين وعيناه مثل شعلتين من نار، أقسم بشرفي يا ميسوا أنه لا يختلف عن الطفل الذي اختطفه النمر».

«دعوني أنظر» قالت امرأة تلبس حلقات نحاسية ثقيلة في معصميها وكاحليها، ونظرت إلى ماوكلي من تحت راحة يدها، «حقًا إن له ملامح ابني نفسها، إلا أنه أنحف منه».

كان الكاهن شخصًا ذكيًا يعرف أن ميسوا زوجةُ أثرى رجل في القرية، لذا نظر إلى السماء للحظات وقال بوقار: «لقد أعادت لنا الأدغال ما أخذته منا، خذي الصبي إلى بيتك يا أختي ولا تنسي أن تكرمي الراهب الذي يتبصر في حياة الناس».

«بحق الثور الذي افتداني، كل هذا الكلام ليس سوى مراسم قبول من القطيع. حسنًا، إن كنت خلقت بشرًا فلأكُن بشرًا كما يجب».

انقسم الجمع وأومأت المرأة لماوكلي باتجاه كوخها، حيث كان سرير مطلي بالأحمر وخزانةٌ من الخزف عليها زخرفات نافرة غريبة،

بضعة أطباق نحاسية وصورة إله هندوسي في كوة صغيرة، وعلى الجدار مرآة كالتي تباع في أسواق القرية.

أعطته ميسوا الكثيرَ من الحليب وبعضَ الخبز، ثم حطت يدها على رأسه ونظرت في عينيه، فقد ظنت أنه يمكن أن يكون ابنَها الحقيقي وقد عاد من الأدغال حيث أخذه النمر، وقالت: «ناثو، يا ناثو» فلم يبدُ على ماوكلي أنه يتذكر الاسم.

«هل تتذكر اليوم الذي أعطيتك فيه حذاءك الجديد؟» ثم لمست قدمه فكانت قاسية مثل قرن، «لا، هذه الأقدام لم تلبس حذاء يومًا، لكنك تشبه ابني ناثو كثيرًا، وسوف تكون ابنًا لي».

اضطرب ماوكلي، فهو لم يجلس تحت سقف من قبل، لكنه حين نظر إلى السقف المصنوع من القش عرف أنه يستطيع تمزيقه إن أراد الهرب، ورأى أن النوافذ لا أقفال لها، ثم قال لنفسه: «ما فائدة الإنسان إن لم يفهم كلام البشر؟ أنا الآن سخيف وغبي مثل أي إنسان بين شعب الأدغال، لا بد أن أتحدث مثلهم».

كل ما تعلمه ماوكلي في الأدغال حين كان يعيش مع الذئاب من تقليد صوت الظباء ونخير الخنزير البري لم يذهب سدى، لذا، ما إن تلفظ ميسوا كلمةً كان يقلدها بشكل مثالي، وقبل أن يحل الظلام استطاع تعلم أسماء أشياء كثيرة في الكوخ. لكنه واجه صعوبة وقت النوم لأنه لم يكن لينام تحت أي شيء يشبه قفص الفهود مثل ذلك الكوخ، وعندما أغلقوا بابه خرج عبر النافذة.

«دعيه يفعل ما يريد» قال زوج ميسوا، «تذكري أنه لم ينم على

سرير من قبل، إذا كان قد أرسل إلينا حقًا عوضًا عن ولدنا فهو لن يهرب».

تمدد ماوكلي بين أعشاب طويلة نظيفة على طرف الحقل، لكن قبل أن يغلق عينيه وكزه عند ذقنه أنف رمادي طري، «أف!» قال الذئب الأشهب، وهو الأكبر بين جراء الذئبة، «هذه مكافأة سيئة بعد أن تبعتك عشرين ميلًا، تفوح منك رائحة دخان وأبقار، لقد التقطت رائحة البشر منذ الآن. استيقظ يا أخي الصغير فلديّ بعض الأخبار».

«هل الجميع بخير في الأدغال؟» قال ماوكلي وهو يعانقه.

«الكل بخير عدا الذئاب الذين أصيبوا بحروق من الوردة الحمراء. والآن اسمع، لقد رحل شيريخان ليصيد في مكان بعيد إلى أن ينمو فراؤه مجددًا، فقد أصيب بحروق بليغة، لكنه أقسَم أنه حين يعود سيرمي عظامك في الواينغانغا».

«ليس الوحيد الذي أقسم فأنا أيضًا قطعت عهدًا، لكن الأخبار جيدة دائمًا. أنا متعب اليوم يا أشهب، متعب من كثرة الأشياء الجديدة، لكن وافني بالأخبار دومًا».

«ألن تنسى أنك ذئب؟ ألن يجعلك البشرُ تنسى؟» قال الذئب الأشهب قلقًا.

«أبدًا، سأتذكر دائمًا كم أحبك أنت والجميع في كهفنا، لكنني لن أنسى أيضًا أنني طُرِدت من القطيع».

«وأنك قد تُطرَد من قطيع آخر. البشر يبقون بشرًا، وكلامهم مثل نقيق الضفادع في بركة ماء. حين آتي مجددًا سأنتظرك بين سوق البامبو على طرف أراضي الرعي».

بعد تلك الليلة ظل ماوكلي ثلاثة أشهر لا يخرج من بوابة القرية إلا نادرًا، مشغولًا بتعلم عادات البشر وأسلوب حياتهم، فاضطر أولًا لارتداء خرقة تستر جسده وكانت تزعجه كثيرًا، ثم اضطر للتعلم عن النقود، لكنه لم يفهمها أبدًا، ثم عن الحراثة، ولم يعرف المغزى منها.

يعتمد سير الحياة وإيجاد الطعام في الأدغال على ضبط النفس، ولحسن حظه علمه قانون الأدغال أن يضبط نفسه فقد بدأ أطفال القرية يثيرون غضبه، وحين كانوا يسخرون منه إذا رفض مشاركتهم اللعب أو إمساك الطائرة الورقية، أو أخطأ بلفظ كلمة ما، لم يمنعه عن الإمساك بهم وقسمهم نصفين سوى علمِه أن قتل الجراء الصغيرة العارية عمل شائن.

في الأدغال كان يرى نفسه ضعيفًا مقارنة بالحيوانات لذا لم يدرك مدى قوته، أما في القرية يقول الناس أنه قوي مثل ثور. ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الفرق الذي تحدثه الطبقة الاجتماعية بين إنسان وآخر، لذلك عندما انزلق حمارُ صانعِ الخزف في حفرة طين سحبه من ذيله ليخرجه منها، ثم ساعد في تكديس القدور ليكملوا رحلتهم إلى سوق كانيفارا. ما فعله سبّب صدمة كبيرة، لأن صانع الخزف رجل من طبقة دنيا، وحمارُه أدنى بعد، وحين وبخه الكاهن

على ذلك هدده ماوكلي بوضعه هو أيضًا فوق الحمار، فأخبر زوجَ ميسوا أن على الصبي الخروج إلى العمل في أقرب وقت ممكن. وأخبر زعيمُ القرية ماوكلي أن عليه مرافقة الجواميس إلى الرعي في اليوم التالي. سُرّ ماوكلي كثيرًا لذلك، وبسبب تعيينه خادمًا للقرية، إن صح التعبير، ذهب تلك الليلة إلى حلقة تُعقد كل مساء على منصة حجرية تحت شجرة تين مهيبة. كان ذلك نادي القرية، حيث يلتقي الزعيم والحارس والحلاق الذين يعرفون كل أخبار القرية، وبولديو صياد القرية صاحب البندقية.

على الأغصان في الأعلى تجلس القرود وتثرثر، وتحت المنصة كانت حفرةٌ تسكنها كوبرا مقدسة يقدم لها كل ليلة طبق من الحليب. يجلس العجائز حول الشجرة ويتحدثون، ويدخنون النارجيلة حتى وقت متأخر من الليل. يحكون حكايات عجيبة عن آلهة ورجال وأشباح، ويحكي بولديو قصصًا أعجَبَ عن حياة الحيوانات في الأدغال، حتى تكاد أعين الأطفال الجالسين خارج الحلقة تخرج من محاجرها. أغلب الحكايات تتناول الحيوانات، فالأدغال كانت على أعتاب بيوتهم، ينهش الغزال والخنزير البري محاصيلهم، ويتردد النمر بين فينة وأخرى ليختطف أحدهم عند الفجر على مقربة من بوابات القرية.

كان ماوكلي بطبيعة الحال يعرف حقيقة ما يحكون عنه، وبينما كان بولديو يقفز من حكاية إلى أخرى أغربَ منها والبندقية على ركبتيه، يضطر ماوكلي لتغطية وجهه كي يخفي ضحكه، ويفضحه

اهتزاز كتفيه. مضى بولديو يشرح أن النمر الذي خطف ابن ميسوا كان نمرًا شبحًا، مسكونًا بروح مرابٍ مسنٍّ مات قبل عدة سنوات. «ما أقوله صحيح، بعلامة أن المرابي بورون داس، كان يعرج بسبب الضربة التي تلقاها أثناء شجار وقع عندما احترقت دفاتر حساباته، والنمر الذي أتحدث عنه يعرج أيضًا، فآثار أقدامه غير منتظمة».

«صحيح، صحيح، لابد أن هذه هي الحقيقة» قالت جوقة اللحى وهي تومئ سوية.

«هل كل حكاياتكم مثل هذه التخاريف والخيالات؟» قال ماوكلي، «النمر يعرج لأنه ولد أعرج، والكل يعرف ذلك. أما الحديث عن روح مرابٍ تسكن جسد حيوان يفتقر إلى شجاعة ابن آوى لهوَ حديث أطفال».

أسكتت الدهشة بولديو، أما الزعيم فقد جلس يحدق. «ها! أليس هذا صبي الأدغال المزعج؟» قال بولديو، «إن كنت بهذه الفطنة لم لا تجلب جلده إلى كانيفارا، فالحكومة أعلنت عن مئة روبية لمن يقتله. وعلى كل حال عليك أن تصمت حين يتكلم الكبار».

نهض ماوكلي ليغادر وأجاب دون أن يلتفت: «جلستُ هنا مصغيًا طوال الأمسية، لكن بولديو لم يقُل عن الأدغال شيئًا صحيحًا سوى مرة أو اثنتين رغم أنها عند عتبة داره، فكيف إذن أصدق قصص الأشباح والآلهة والعفاريت التي يدعي أنه رآها؟».

«على هذا الفتى أن يذهب للرعي طوال اليوم» قال الزعيم، وبولديو ينفخ ويتأفف من جسارة ماوكلي.

جرت العادة في معظم قرى الهند أن يأخذ بعضُ الصبية قطعانَ الماشية لترعى في الصباح الباكر ويعيدونها ليلًا، وكانت الأبقار نفسها القادرة على سحق رجل أبيض حتى الموت، ترضى أن تتعرض للضرب والتهديد والصراخ من قبل أطفال أقصر من مستوى أنوفها، أما الصبية فكانوا في أمان طالما يرافقون القطيع، فالنمر نفسه لا يجرؤ على مهاجمة حشد من الثيران، لكن إن تخلفوا منشغلين بقطف الأزهار أو صيد السحالي أصبحوا طريدة سهلة.

تجول ماوكلي في أزقة القرية عند الفجر جالسًا على ظهر الثور الهائل راما، وبدأت الجواميس ذات اللون الرمادي المزرقّ، والقرون الطويلة المسحوبة إلى الخلف والعيون الوحشية، تغادر الزريبة واحدًا واحدًا تتبع ماوكلي، الذي أخذ يسوطها بعود بامبو طويل لامع، موضحًا للصبية أنه الزعيم، ثم أمر واحدًا منهم يدعى كاميا أن يرعى الأبقار مع الآخرين بينما يتابع هو سيرَه مع الجواميس، وحذره من أن يشرد عن القطيع. تغصّ أراضي الرعي الهندية بصخور وأشجار صغيرة وكتل أعشاب وشِعاب ينتشر القطيع فيها ويختفي، بينما تلزم الجواميس عادة برك الطين حيث تتقلب وتتشمس في الطين الدافئ لساعات. قادها ماوكلي إلى طرف السهل حيث يغادر نهر الواينغانغا الأدغال، ثم نزل عن رقبة راما وهرول نحو مجموعة من سوق البامبو حيث وجد أخاه الأشهب.

«لقد انتظرتُ هنا أيامًا عدة، ما معنى هذا العمل في رعي القطعان؟» قال الذئب الأشهب.

«إنه أمر، لقد أصبحت راعي قطعان القرية لفترة. هل من أخبار عن شيرخان؟».

«لقد عاد إلى موطنه، وقد انتظرك هنا طويلًا ثم غادر مجددًا لندرة الطرائد، لكنه ينوي قتلك».

«لا بأس، طالما هو بعيدٌ فلتقف هنا أنت أو أحد إخوتي كي أراك حين أخرج من القرية، وإن عاد انتظِرني في الشِعب عند شجرةِ لهب الغابة وسط السهل، علينا ألا نمكّن شيرخان منا».

اختار ماوكلي بقعة ظليلة وتمدد لينام بينما ترعى الجواميس حوله. والرعي في الهند من أكثر الأعمال كسلًا، فالأبقار تمشي وتعلك وتستلقي ثم تمشي مجددًا، حتى أنها لا تخور بل تنخر فقط، ونادرًا ما تصدر الجواميس أي صوت، بل ينزل واحدها تلو الآخر إلى برك الطين ويغوص فيها حتى لا يبقى ظاهرًا منه سوى أنفه وعيونه الزرقاء الباهتة فوق السطح، ثم تخرج لتستلقي كقطع من الحطب.

كانت أشعة الشمس تجعل الصخور تتراقص من الحرارة، ومن الأعالي يَسمع الرعاة صوت صقر، دائمًا صوتَ صقر واحد لا يُرى، ويدركون أنهم إن ماتوا، أو ماتت بقرة فإن الصقر سوف يهبط، فيراه صقر آخر على بعد أميال ويتبعه، ثم آخر، ثم آخر، وما إن تغادرهم الروح حتى يظهر سرب صقور جائعة من العدم. كان الصبية ينامون ثم يستيقظون ثم ينامون مجددًا، ثم ينسجون سلالًا صغيرة من عشب جاف يضعون فيها الجنادب، أو يمسكون بسرعوفين

ويجبرونها على القتال، أو يصنعون قلادة من حبات جوز سوداء وحمراء، أو يشاهدون سحلية تتمتع بالشمس على صخرة، أو حية تصيد ضفدعًا قرب بركة الطين. ثم يغنون أغاني هندية طويلة تنتهي بمواويل غريبة. ويبدو النهار أطول من حياة كاملة، فيصنعون قلعة ورجالًا وأحصنة وجواميس من الطين، ثم يضعون قشة في يد الرجل الطيني، ويتظاهرون بأنهم ملوك والرجال جيشهم، أو أنهم آلهة تعبَد.

ثم يحل المساء وينادي الصبية، فتنهض الجواميس متثاقلة من الطين الكثيف بضجة تشبه إطلاق النار وتخرج واحدًا تلو الآخر لتمشي في صف طويل عبر السهل الرمادي عائدة باتجاه القرية المضاءة.

يومًا بعد يوم كان ماوكلي يقود الجواميس نحو برك الطين، ويومًا بعد يوم كان يرى أخاه الأشهب على بعد ميل ونصف عبر السهل، فيعرف أن شيريخان لم يعُد بعد، ويومًا بعد يوم كان يستلقي على العشب يستمع إلى الأصوات حوله ويحلم بأيامه الماضية في الأدغال. في تلك الصباحات الهادئة الطويلة كان ماوكلي سيعرف على الفور لو خطا شيريخان خطوة واحدة خاطئة بقدمه العرجاء في الأدغال عند الواينغانغا.

ثم أتى يومٌ لم يرَ فيه أخاه الأشهب عند المكان المتفق عليه، فضحك واتجه نحو الشِعب حيث شجرة لهب الغابة المغطاة بزهر ناريّ اللون، هناك جلس الأشهب وشعر جسده منتصب تمامًا،

وقال لاهثًا: «لقد ظل مختبئًا شهرًا كاملًا ليجعلك ترخي دفاعاتك، والبارحة عبَر التلال بصحبة تاباكي يتعقبانك عن قرب».

عبس ماوكلي وقال: «لستُ خائفًا من شيريخان، لكن تاباكي ماكر جدًا».

«لا تخف» قال الأشهب لاعقًا شفتيه، «لقد التقيت تاباكي عند الفجر، وأخبرني كل شيء قبل أن أكسر ظهره، ويبدو أن حكمته ومكره في معدة الصقور الآن. يخطط شيريخان أن يترقبك عند بوابة القرية هذا المساء، يريدك أنت ولا أحد غيرك، إنه مختبئ الآن في الشِعب الجاف في الواينغانغا».

«هل أكل اليوم أم خرج للمطاردة خاوي المعدة؟» سأل ماوكلي، فالإجابة بالنسبة له مسألة حياة أو موت.

«لقد اصطاد خنزيرًا عند الفجر، وشرب أيضًا. تذكر أن شيريخان لا يمكن أن يصوم حتى من أجل الانتقام».

«ياله من أحمق! ياله من جرو ابن جرو! أكل وشرب أيضًا، ويظن أنني سأنتظره حتى ينام! قل لي، أين يختبئ الآن؟ إذا اجتمع عشرة منا يستطيعون القضاء عليه حيث هو، لكن هذه الجواميس لن تهاجمه إلا إن شمت رائحته، وأنا لا أتكلم لغتها، هل نستطيع أن نتبع أثره حتى تلتقط رائحته؟».

«لقد سبح عميقًا في الواينغانغا كي يتخلص من الرائحة» قال الأشهب.

«أنا واثق أن تاباكي أوحى له بذلك، فتلك الفكرة لا يمكن أن تخطر له» وجلس ماوكلي يضع إصبعًا في فمه ويفكر.

«إذًا هو في شِعب الواينغانغا.. إنه ينفتح على سهل يبعد أقل من نصف ميل عن هنا، أستطيع أن آخذ القطيع عبر الأدغال إلى أعلاه ثم أهبط باتجاه شيريخان، لكنه يمكن أن يتسلل هاربًا عند المخرج، لا بد أن نغلق عليه الشِعب من ذلك الطرف. أخي الأشهب، هل تقدر على فصل القطيع إلى نصفين من أجلي؟».

«لا أظن أنني أقدر، لكنني أحضرت معي مساعدًا حكيمًا».

ابتعد الأشهب مهرولًا ونزل في حفرة، ثم خرج منها رأسٌ رمادي ضخم يعرفه ماوكلي جيدًا، وترددت في الهواء الدافئ صرخة هي الأبأس في الأدغال، عواء ذئب في منتصف النهار.

«أكيلا! أكيلا!» قال ماوكلي وصفق بيديه، «كنت أعرف أنك لن تنساني. لدينا كثير من العمل الشاق، اقسم القطيع إلى نصفين يا أكيلا، ولتكن الأبقار والعجول معًا في أحدها والثيران والجواميس في الآخر».

ركض الذئبان على جانبي القطيع يتبادلان الأماكن داخلَين وخارجَين منه ورؤوس الماشية تنخر وتنتفض، حتى انقسم إلى كتلتين، وقفت الأبقار في إحداها مع عجولها في المنتصف، يتطاير الشرر من أعينها وتضرب الأرض بحوافرها متحفزة للاصطدام بالذئبين وسحق كل حياة فيهما إن جلسا ساكنين، وفي الكتلة الأخرى كانت الثيران تنخر وتضرب الأرض بقوة، ورغم أن منظرها كان

مهيبًا أكثر إلا أنها أقل خطورة، فليس لديها عجول تحميها. لم يكن ستة رجال ليستطيعوا فصل القطيع بهذه الدقة.

«ماذا بعد؟» قال أكيلا لاهثًا، «إنهم يحاولون أن يلتحموا مجددًا»

امتطى ماوكلي ظهر راما وقال: «قُدِ الثيران نحو اليسار يا أكيلا، وأنت يا أشهب، حين نبتعد اجمع الأبقار واذهب بهم إلى أسفل الشِعب».

«وأين أتوقف؟».

«توقف حيث تكون جدران الشِعب أعلى من أن يستطيع شير يخان القفز عنها» صاح ماوكلي، «أبقهم هناك حتى نأتي إليكم».

انحرف القطيع مع عواء أكيلا ليقود الثيران بعيدًا نحو اليسار، وركض الأشهب أمام الأبقار فاندفعت خلفه نحو أسفل الشِعب.

«رائع، وكزة أخرى وسيعود للثيران نشاطها، لكن احذر الآن، احذر يا أكيلا، وإلا ستبدأ بالهجوم. هوويا! هذا أكثر جنونًا من قيادة الظبي الأسود، هل كنت تعرف أن هذه المخلوقات يمكنها أن تتحرك بهذه السرعة؟» صاح ماوكلي.

«نعم، فقد كنت أصطادها أيضًا في شبابي» قال أكيلا ملتقطًا أنفاسه وسط الغبار، «هل أنعطف بهم نحو الأدغال؟».

«نعم، انعطف، انعطف بهم بسرعة! راما مهتاجٌ غضبًا، آه لو أمكنني أن أخبره بما أريد منه فعله اليوم».

انعطفت الثيران إلى اليمين هذه المرة واخترقت الأيكة، وحين

شاهد الصبية الرعاة ذلك وهم بجانب الأبقار على بعد نصف ميل، هرعوا إلى القرية بأسرع ما يمكن لأقدامهم أن تحملهم، يصرخون أنْ جنت الجواميس وفرّت هاربة.

كانت خطة ماوكلي بسيطة، أراد أن يطوق الشِعب من أعلاه وأسفله ثم يهبط بالثيران ليحصر شيريخان بينها وبين الأبقار، فقد كان متأكدًا أنه ليس في حال تجعله قادرًا على تسلق جدران الشِعب بعد أن أكل وشرب حتى الشبع.

بدأ ماوكلي يهدئ الجواميس بصوته، وتراجع أكيلا يهمهم ليستعجل الصفوف الخلفية. لقد كانت دائرة كبيرة جدًا تلك التي شكلوها ليطوقوا الشِعب، لأنهم لم يريدوا أن يقتربوا كثيرًا فينتبه إليهم شيريخان.

أخيراً، جمع ماوكلي القطيع المرتبك على بقعة معشبة تنحدر بقوة نحو الشِعب نفسه، ومن ذلك العلو يمكنك أن تنظر عبر قمم الأشجار نحو السهل في الأسفل، لكن ماوكلي كان ينظر إلى أطراف الشِعب ورأى برضى كبيرٍ أنهم طوقوه في الاتجاهين، وأن العرائش المتدلية فوقهم لا تترك موطئ قدم لنمر يريد الهرب.

«دعهم يلتقطون أنفاسهم يا أكيلا» قال ماوكلي رافعًا يده، «لم يشموا رائحته بعد، دعهم يلتقطون أنفاسهم، عليّ أن أخبر شيريخان من أتى، لقد أوقعنا به».

ثم وضع يديه على فمه وصرخ نحو الشِعب، وكان ذلك أشبه بالصراخ داخل نفق والصدى يتردد من صخرة إلى صخرة. بعد

وقت طويل ردت زمجرة ناعسة ممططة لنمر متخم قد استيقظ للتو: «من ينادي؟» قال شيريخان، فرفرف طاووس مذهل خارجًا من الشِعب يزعق رعبًا.

«أنا ماوكلي يا لص الأبقار، حان وقت الذهاب إلى صخرة المجلس! هيا ننحدر بهم يا أكيلا، هيا يا راما، هيا».

أحجم القطيع لوهلةٍ على حافة المنحدر، لكن أكيلا عوى عواء مدويًا، فأخذت الجواميس تقذف بنفسها واحدًا تلو الآخر كسفينة مسرعة والرملُ والحجارة تتطاير من حولها.

ما إن بدأ ذلك حتى أصبح من المستحيل إيقافه، وقبل أن يصلوا إلى قاع الشِعب التقط راما رائحة شيريخان وأطلق خواره.

«هاها!» قال ماوكلي من فوق ظهر راما، «الآن عرفت!».

وانهمر تيار القرون السوداء والأنوف المرغية والعيون الشاخصة إلى الوادي كما تنحدر الصخور في موسم الطوفان. ودفعت الأكتاف الجواميس الأضعف نحو جانبي الشِعب حيث اخترقت العرائش. كانوا يعرفون ما عليهم فعله، الهجوم الساحق لقطيع الجواميس الذي لا يستطيع أي نمر مواجهته.

سمع شيريخان هدير حوافرهم فنهض ليمشي متثاقلًا ينظر يمينًا وشمالًا بحثًا عن مهرب، لكن جدران الشِعب كانت شاهقة، فاضطر أن يتوقف مثقلًا بالطعام والشراب مستعدًا لفعل أي شيء عدا القتال. نزل القطيع في البركة التي غادرها شيريخان للتو وخواره

يتردد في الشِعب، فسمع ماوكلي خوارًا يجيب من أسفل الشِعب ورأى شيريخان يلتف راجعًا، فقد عرف أنه إن ساءت الأمور فالأفضل أن يواجه الثيران من أن يواجه الأبقار وعجولها.

كبا راما، وتعثرت خطواته، ثم داس على شيء طري، ثم اصطدم والثيرانُ من خلفه بقوة كبيرة ببقية القطيع، فارتفعت الجواميس الأضعف عن الأرض لشدة الاصطدام الذي جر كلا القطيعين إلى السهل ينطح ويركل وينخر.

كان ماوكلي يسابق الزمن، فانزلق عن رقبة راما يسوطه يمينًا ويسارًا بعصاه.

«افصل بينهم بسرعة يا أكيلا، فرقهم وإلا سيقاتلون بعضهم البعض، خذهم بعيدًا يا أكيلا. هيه! راما! هيه! هيه! اهدؤوا الآن يا صغاري، لقد انتهى كل شيء»

ركض أكيلا والأخ الأشهب يتقدمان تارة ويتأخران تارة، يعضان أرجل الجواميس، ورغم أن القطيع حاول الانعطاف ليصعد الشِعب مجددًا إلا أن ماوكلي استطاع أن يجعل راما يعدِل فتبعه الآخرون نحو برك الطين.

لم يلزم شيريخانَ مزيدٌ من السحق، لقد مات، وبدأت الصقور تحوم فوقه بالفعل.

«لقد كانت تلك ميتة كلب يا إخوتي» قال ماوكلي، وهو يتناول السكين التي اعتاد حملها دائمًا في غمد حول رقبته بعد أن عاش مع البشر.

«لم يكن من الممكن له أن يقاتل، سيبدو جلده رائعًا على صخرة المجلس، علينا أن نبدأ العمل بسرعة»

لم يكن أي صبي عاش بين البشر ليحلم أن يسلخ بنفسه جلد نمر بطول عشرة أقدام، لكن ماوكلي كان يعرف أكثر من أي أحد كيف يكسو الجلدُ جسد الحيوان وكيف يمكن خلعه، لكنه عمل شاق، وأخذ ماوكلي يمزق ويقطع ويلهث ساعة بينما وقف الذئبان يمدان ألسنتهما أو يتقدمان نحو ماوكلي لمساعدته بالشد والسحب كما يأمرهما. ثم حطت يد على كتفه فجأة، وحين رفع بصره رأى بولديو حاملًا بندقيته، فقد نقل الأطفالُ إلى القرية خبر الهروب الجماعي للجواميس، فخرج بولديو غاضبًا متلهفًا لتوبيخ ماوكلي على عدم اهتمامه بالقطيع، واختفت الذئاب عن الأنظار فور أن رأته قادمًا.

«ما هذه الحماقة؟ هل تفكر بسلخ جلد نمر بنفسك؟ أين قتلته الجواميس؟ إنه النمر الأعرج أيضًا وهناك مئة روبية مقابل حياته.. حسنًا حسنًا، سنغض النظر عن سماحك للقطيع بالهرب، وربما سأعطيك روبية من الجائزة بعد أن آخذ الجلد إلى كانيفارا»، ثم تلمس إزاره بحثًا عن حجر صوان وقطعة معدن وانحنى ليحرق شاربي شيرخان، فمعظم الصيادين المحليين اعتاد على حرق شاربي النمر ليمنع روحه من ملاحقته.

«همم!» قال ماوكلي، نصفها لنفسه وهو يسلخ جلد إحدى القدمين الأماميتين، «إذًا سوف تأخذ الجلد إلى كانيفارا من أجل

الجائزة وربما تعطيني روبية منها؟ لكنني أرى أن لي شأنًا آخر مع هذا الجلد، هه! أبعد تلك النار أيها العجوز!».

«كيف تتحدث بهذه الطريقة إلى رئيس صيادي القرية؟ إن حظك، مجتمعًا مع غباء هذه الجواميس، هو الذي أعانك على هذا الصيد. لا بد أن النمر قد أكل حديثًا، وإلا لكان الآن على بعد عشرين ميلًا من هنا، أنت لا تستطيع حتى أن تسلخه جيدًا أيها الشقي المزعج. ثم أؤمر أنا، بولديو، ألا أحرق شاربيه. ماوكلي، أنا لن أعطيك فلسًا من الجائزة، لن تنال مني سوى ضربٍ مؤلم، اترك الجثة!».

«بحق الثور الذي افتداني» قال ماوكلي وقد وصل إلى الكتف، «هل عليّ أن أثرثر مع قرد عجوز طوال الظهيرة؟ تصرف يا أكيلا، هذا الرجل يزعجني».

بعد أن كان بولديو منحنيًا فوق رأس شيريخان، وجد نفسه فجأة مستلقيًا على العشب وذئب رمادي يقف فوقه، بينما تابع ماوكلي سلخ الجلد كما لو أنه وحده في الهند بأكملها.

«نـ.. نعم» قال ماوكلي مطبقًا فكيه، «أنت على حق، لن تعطيني فلسًا واحدًا من الجائزة. إن بيني وبين النمر الأعرج هذا حرب قديمة، حرب قديمة جدًا، وقد انتصرت فيها».

والحق يقال، لو كان بولديو أصغر بعشر سنوات وقابل أكيلا في الأدغال لحاول قتاله، لكن ذئبًا يطيع أوامر صبي لديه حرب خاصة مع النمر آكل البشر، فهذا ليس بحيوان طبيعي، إنه سحر، أو أسوأ أنواع الشعوذة. هكذا فكر بولديو، وتساءل إن كانت

التميمة حول عنقه ستحميه، فاستلقى ساكنًا لا يتزحزح، يتوقع أن يتحول ماوكلي إلى نمر في أية لحظة.

«أيها المهراجا! أيها الملك العظيم!» قال أخيرًا بهمس مبحوح.

«نعم» قال ماوكلي بضحكة مكتومة دون أن يتلفت.

«أنا رجل مسن، ولم أكن أعرف أنك أكثر من مجرد راعٍ، هل يمكنني أن أنهض وأرحل من هنا؟ أم أن خادمك سيمزقني إربًا؟».

«اذهب، مع السلامة، لكن لا تتدخل بصيدي ثانية، اتركه يذهب يا أكيلا».

عاد بولديو إلى القرية بأسرع مايستطيع، يعرج ويتعثر ويلتفت طوال الوقت ليرى إن تحول ماوكلي إلى شيء فظيع. وبوصوله إلى القرية حكى لهم حكاية سحر وشعوذة جعلت الكاهن يبدو مرعِبًا.

تابع ماوكلي عمله، وحين نجح مع الذئاب في فصل الجلد المذهل عن الجسد كان الغروب قد حل.

«الآن يجب أن نخبئ هذا ونعيد الجواميس إلى بيتها، ساعدني على قيادتهم يا أكيلا»

تجمع القطيع في ضباب الغروب، وحين اقتربوا من بوابة القرية رأى ماوكلي الأضواء وسمع ضرب الصنوج ورنين الأجراس في المعبد، وبدا كأن نصف القرية ينتظره عند البوابة.

«ذلك لأنني قتلت شيرخان» قال لنفسه، لكن وابلًا من الحجارة صفر بجانب أذنيه، وأخذ القرويون يصرخون: «مشعوذ! جرو ذئب!

شيطان الأدغال! ارحل! ابتعد من هنا بسرعة وإلا سيحولك الكاهن إلى ذئب مجددًا، أطلق النار يا بولديو، أطلق النار!»، ودوى انفجار طلقة البندقية فجأر جاموس صغير ألمًا.

«مزيد من السحر!» صرخ القرويون، «إنه يستطيع أن يحرف الرصاصات، لقد كان ذلك جاموسك يا بولديو»

«ما الذي يحدث؟» قال ماوكلي مذهولًا والأحجار تزداد حجمًا.

«إخوتك هؤلاء لا يختلفون عن قطيعنا» قال أكيلا وهو جالس برباطة جأش، «إن كان لهذه الرصاصات أي معنى فهو أنهم يطردونك».

«ذئب! جرو ذئب! اذهب من هنا!» صرخ الكاهن ملوحًا بغصن من الريحان المقدس.

«مرة أخرى؟ في المرة السابقة طردت لأنني بشر، والآن أطرَدُ لأنني ذئب. فلنذهب يا أكيلا».

ثم عبرت امرأة نحو القطيع، كانت تلك ميسوا، وصرخت: «آه يابني، يا بني! يقولون أنك مشعوذ تحول نفسك إلى حيوان حين تريد، أنا لا أصدقهم، لكن اذهب من هنا وإلا قتلوك، يقول بولديو أنك ساحر، لكنني أعرف أنك انتقمت لموت ناثو».

«ارجعي يا ميسوا» صرخ الحشد، «ارجعي وإلا ستصيبك حجارتنا»، وصرخ ماوكلي صرخة قصيرة فظيعة، فقد أصابه حجر في فمه.

«عودي يا ميسوا، هذه واحدة من الحكايات الحمقاء التي يحكونها تحت الشجرة الكبيرة في المساء، لقد انتقمتُ على الأقل لموت ابنك.. وداعًا، عودي بسرعة، فسأعيد القطيع لهم بأسرع من وابل حجارتهم، أنا لست ساحرًا يا ميسوا، الوداع».

«والآن مرة أخرى يا أكيلا، اجمع القطيع» صرخ ماوكلي.

كان القطيع متلهفًا للعودة إلى القرية، وبالكاد يحتاج لنداء أكيلا، فاقتحم بوابة القرية مثل زوبعة مبعثرًا الجمع يمينًا وشمالًا. «أحصوهم جيدًا، فربما سرقتُ أحدهم، أحصوهم جيدًا، فلن أرعى لكم مرة أخرى» صرخ ماوكلي بازدراء، «الوداع يا أبناء البشر، واشكروا ميسوا إن لم آتكم مع الذئاب لأصطادكم واحدًا واحدًا».

قفل ماوكلي مبتعدًا بصحبة الذئب الأشوس، وشعر بسعادة وهو ينظر إلى النجوم، «لا مزيد من النوم في الأقفاص يا أكيلا، لنأخذ جلد شيرخان ونذهب، ولن نمسّ القرية بأذى، لأن ميسوا كانت طيبة معي».

حين أشرق القمر فوق التل مسدلًا عليه مظهرًا حليبيًا، رأى القرويون المرعوبون ماوكلي مع ذئبين خلفه وحزمة على رأسه يقطعون السهل بهرولة الذئاب التي تقطع الأميال الطويلة كالشرر، فقرعوا أجراس المعبد وضربوا الصنوج بقوة أكبر من ذي قبل. وبكت ميسوا، أما بولديو فظل يطرز بالكذب قصة مغامرته في الأدغال حتى أنهاها بأن أكيلا وقف على قدميه الخلفيتين وتحدث كالبشر.

كان القمر قد بدأ يهبط حين وصل ماوكلي والذئبان إلى التل حيث صخرة المجلس، ومروا بكهف الذئبة.

«لقد طردوني من قطيع البشر يا أمي» صاح ماوكلي، «لكنني أتيت ومعي جلد شيريخان كي أفي بوعدي».

خرجت الذئبة من الكهف بتؤدة والجراء خلفها، فلمعت عيناها لرؤية الجلد.

«لقد قلتُ له في ذلك اليوم حين حشر رأسه وكتفيه في كهفنا قاصدًا قتلك يا ضفدعي الصغير، قلت له أن صياد اليوم سيصبح طريدة غدًا، أحسنت صنعًا».

«أحسنت صنعًا يا صديقي الصغير» قال صوت رخيم في الأيكة، «كنا وحيدين في الأدغال بدونك» و أتى باغيرا يركض نحو قدمي ماوكلي العاريتين.

تسلقا صخرة المجلس معًا وبسط ماوكلي الجلد على الصخر الأملس حيث اعتاد أكيلا أن يجلس، وثبته بأربع شظايا من البامبو، فتمدد أكيلا فوقه وأطلق صيحته القديمة إلى المجلس، «أمعنوا النظر أيها الذئاب»، مثل ما نادى حين أحضر ماوكلي إلى المجلس أول مرة.

منذ عزل أكيلا ظل قطيع الذئاب بلا قائد، يصيدون ويقاتلون كما يشاؤون، لكنهم أجابوا النداء بحكم العادة، بعضهم كان يعرج من فخاخ وقع فيها، وبعضهم من جرح طلقة نارية، وبعضهم

أصيب بالجرب من أكل الطعام السيئ، والكثير منهم كان مفقودًا. لكن أتى من تبقى منهم إلى المجلس ورأوا جلد شيرخان المخطط على الضخرة ومخالبه الكبيرة معلقة بأطراف أقدامه الفارغة المتدلية، حينها غنى ماوكلي أغنية ظهرت على لسانه دون تفكير، غناها بصوت عال وهو يقفز على الجلد الرائع، ويدبك بكعبيه على إيقاعها حتى انقطع نفسه، وأكيلا والأخ الأشهب يعويان بين السطور.

«أمعنوا النظر أيها الذئاب، هل وفيت بعهدي؟» قال ماوكلي.

عوت الذئاب تقول: «نعم»، وقال ذئب جريح: «عد لقيادتنا يا أكيلا، كن قائدنا يا جرو البشر، فقد سئمنا العيش بلا قانون، ونريد أن نرجع شعب الأحرار كما كنا».

«لا» زمجر باغيرا، «لن يحدث ذلك، فقد يعاودكم السعار مرة أخرى عندما تشبعون. لم تسموا شعب الأحرار سدى، لقد قاتلتم من أجل حريتكم وهاهي أصبحت ملككم، استمتعوا بها أيها الذئاب!».

«لقد طردني قطيع البشر وقطيع الذئاب» قال ماوكلي، «والآن سأصيد وحدي في الأدغال».

«ونحن سوف نصيد معك» قالت الجراء الأربعة، ومن ذلك اليوم أصبح ماوكلي يذهب للصيد مع الجراء الأربعة في الأدغال، لكنه لم يبق وحيدًا دائمًا، لأنه بعد سنوات أصبح رجلًا وتزوج، لكن تلك قصة للكبار.

أغنية ماوكلي

(وهي الأغنية التي غناها ماوكلي عند صخرة المجلس عندما رقص على جلد شيرخان).

هذه أغنية ماوكلي، أنا ماوكلي وهذه أغنيتي

فلتسمع الأدغال ما فعلتُ

قال شيرخان إنه سيقتل ماوكلي الضفدع

على البوابات عند الشفق

لقد أكل وشرب. فاشرب كثيراً يا شيرخان

فمتى ستشرب لو ذبلتَ ثانية؟

نم واحلم بالصيد

أنا لوحدي في المرعى، فتعال يا أخي الأشهب

تعال إليّ

تعال أيها الذئب الأشوس، فأمامنا طريدة كبيرة

أحضِر قطعان الثيران الكبيرة

زرقاوات الجلد
ذوات العيون الغاضبة
وسُقهم إلى حيث آمرك
أما زلت نائماً يا شيريخان؟ استيقظ، فأنا آت، والثيران خلفي
راما، ملك الثيران، يخبط الأرض بقدمه
بحق مياه واينغانغا أين ذهبت يا شيريخان؟
إنه ليس إيكي ليختبئ في حفرة، ولا ماو الطاووس ليطير
ولا مانغ الخفاش ليتدلى من الأغصان
فأخبريني يا أغصان البامبو التي تصرّ معاً، أين اختبأ؟
إنه هناك، إنه هناك، الأعرج شيريخان تحت أقدام راما
انهض واقتل، فها هي كومة لحم أمامك،
قم واكسر أعناق الثيران!
صه! إنه نائم، ولن نوقظه، لأن قوّته عظيمة
حطّت الصقور لترى.
والنمل الأسود خرج ليتحرّى الأمر
هناك تجمّع كبير على شرفه.
ويحي! ما من ملابس تكسوني، وسترى الصقور أنني عارٍ
أنا خجلٌ من ملاقاة كل أولئك
فأعرني فراءك يا شيريخان،
فراءك الزاهي المخطط لكي أذهب به إلى مجلس الصخرة

لقد قطعتُ عهداً، بحق الثور الذي افتداني، عهداً صغيراً
ولم يبق سوى فرائك حتى أذهب
بهذه السكّين التي يستخدمها البشر، سكّين الصياد
سأنحني لآخذ جائزتي
يا مياه واينغانغا إن شيريخان منحني فراءه لأنه يحبني
شدّه يا أخي الأشهب، شدّه يا أكيلا!
إن جلد شيريخان ثقيل
إن قطيع البشر غاضبون، ويرمونني بالصخور
ويثرثرون بأحاديث الأطفال
إن فمي ينزف، دعوني أهرب
خلال الليل، خلال الليل الساخن
اركضوا معي بسرعة يا إخوتي
سنترك خلفنا أضواء القرية ونمضي تحت القمر الخفيض
يا مياه واينغانغا لقد طردني قطيع البشر
أنا لم أؤذِهم، لكنهم كانوا يخشونني، لماذا؟
ويا قطيع الذئاب لقد طردتموني أنتم أيضاً.
الأدغال محظورة عليّ
والقرية أقفلت أبوابها بوجهي، لماذا؟
وكما يطير مانغ الخفاش بين الوحوش والطيور،
كذلك أطير بين الأدغال والقرية، لماذا؟

أنا أرقص على جلد شيريخان، لكن قلبي حزين
لقد جُرح فمي بحجارة البشر في القرية، لكن قلبي سعيد
لأنني عائد إلى الأدغال، لماذا؟
ثمة شيئان يتصارعان في قلبي كما يتقاتل ثعبانان في الربيع
تتحدر المياه من عينيّ، ومع ذلك أضحك، لماذا؟
أنا ماوكليان اثنان، ولكن جلد شيريخان تحت قدمي
فلتعلم كل الغابة أنني قتلت شيريخان،
انظروا، وتمعنوا أيها الذئاب!
ولكن آه قلبي حزين لأنه مثقل بأشياء لا أفهمها.

الفصل الرابع
حكاية الفقمة البيضاء

تهويدة الفقمة

شش، يا صغيري، إن الليل خلفنا،
فنَمْ
والمياه التي كانت تتألق خضراء
قد استحالت سوداء
والقمر من فوق الأمواج الطويلة
ينظر إلى الأسفل باحثاً عنا
لقد هدأ عباب البحر
وسكنت قاع البحر
الأمواج التي كانت تتلاطم بينها
وصارت وسادتك وثيرة
فاطوِ بوداعة زعنفتَك الصغيرة المتعبة
لن توقظك عاصفة

ولن يباغتك قرش

فنمْ بأمان في حضن البحر المتهادي.

بعيدًا في بحر بيرنغ، على جزيرة سانت بول، وفي منطقة نوفاستوشنا بالتحديد، جرت أحداث هذه الحكاية قبل سنوات عديدة. حكاها لي طائر النمنمة الشتوي المدعو ليمرشين حين أخذته إلى حجرتي عقب اصطدامه بصاري سفينة بخارية ذاهبة إلى اليابان. دفأته وأطعمته يومين حتى تمكن من الطيران عائدًا إلى سانت بول. كان طائرًا صغيرًا وطريفًا، إلا أنه كان يعرف كيف يحكي الحقيقة.

لا أحد يذهب إلى نوفاستوشنا إلا لشأن، ولا أحد له شأن دائم فيها سوى الفقم. يغادر مئات الآلاف منهم البحر الرمادي البارد كل صيف قاصدين شاطئها، حيث يوجد أفضل مكان لعيش الفقم في العالم كله.

كاتش هو واحد منهم، يسبح كل ربيع من حيث يكون، متجهًا إلى نوفاستوشنا مثل زورق طوربيد، ويقضي شهرًا في قتال الفقم الأخرى ليؤمن مكانًا جيدًا على الصخور في أقرب موقع ممكن من البحر. كان عمره خمسة عشر عامًا، ضخم الجسم وله فراءٌ رمادي اللون يشكّل ما يشبه العُرف على كتفيه، وأنيابٌ طويلة مخيفة. حين ينهض مستندًا على زعانفه الأمامية يرتفع أكثر من أربعة أقدام عن الأرض، أما وزنه، إن كان أي أحد يملك الجرأة لقياس وزنه، فهو قريبٌ من سبعمئة باوند. كان مثخنًا بندوب قتالات عنيفة، لكنه مستعدٌ دائمًا لأي قتال جديد، فيشيح برأسه جانبًا كأنه خائف من

النظر إلى وجه خصمه، ثم يُغير عليه بسرعة البرق وتقبض أسنانه الكبيرة على رقبته، فتعيقه قبضته عن أية محاولة للإفلات. لم يطارد كاتش فقمة مهزومة أبدًا لأن ذلك مخالف لقوانين الشاطئ، ولأن جل ما يريده هو مكان بقرب البحر من أجل حضانة أطفاله، لكن بوجود أربعين أو خمسين ألف فقمة تسعى إلى الشيء نفسه كل ربيع، يصبح الصفير والخوار والزئير والضرب على الشاطئ شيئًا مرعبًا.

من قمة تل صغير يدعى هتشنسون، يمكن أن تطل على ثلاثةِ أميال ونصف من الأرض مزدحمة بفقم تتقاتل، وترى زبد الأمواج على الشاطئ منقطًا في كل مكان برؤوس فقم تستعجل الوصول إلى اليابسة لتبدأ حصتها من القتال. أغبياء كانوا وصعبي المراس كالبشر، يتقاتلون في الأمواج المتكسرة، ويتقاتلون على الرمل، ويتقاتلون على أحجار البازلت المصقولة حيث تكون الحاضنات. ولأن أيًا من زوجاتهم لا ترغب أن تمزَّق إربًا بينهم، ينتظرن حتى أواخر أيار أو بدايات حزيران ليأتين إلى الجزيرة.

أما صغار الفقم الذين بلغوا عامين أو ثلاثة أو أربعة وليس لهم عائلة يرعونها، فقد كانوا يخترقون صفوف المقاتلين في جماعات تضم الآلاف، ويقطعون مسافة نصف ميل إلى الداخل للّعب على كثبان الرمل، فيكشطون معهم كل أثرٍ لنبات حيّ. يدعى هؤلاء العزّاب «هولوشيكي»، وكان منهم حوالي مئتي أو ثلاثمئة ألف في نوفاستوشنا وحدها.

ذات ربيع، كان كاتش قد فرغ للتو من قتاله الخامس والأربعين

حين خرجت من البحر ماتكا، زوجته الملساء الرقيقة ذات العينين اللطيفتين، فأمسكها من مؤخر عنقها وأخذها إلى المكان الذي حجزه وقال بجلَف: «تأخرتِ كالعادة، أين كنتِ؟».

كان في مزاج سيئ، إذ ليس من عادته أن يأكل أي شيء خلال الأشهر الأربعة التي يقضيها على الشاطئ، وعرفت ماتكا أن من الأفضل ألا ترد عليه، فنظرت حولها وهدلت: «يا لها من لفتة لطيفة، لقد أخذتَ المكان القديم مجددًا».

«أخذتُه بالطبع، انظري إلي!» قال كاتش، وكان جسده مخدوشًا ونازفًا في مواضع كثيرة، إحدى عينيه شبه مقلوعة وجلد جانبيه ممزق شر تمزيق.

«آه منكم أيها الرجال» قالت ماتكا وهي تهوّي نفسها بزعنفتها الخلفية، «لم لا تكونون عاقلين وتستقرون بهدوء؟ تبدو كأنك صارعت الحوت القاتل».

«لم أفعل شيئًا سوى القتال منذ منتصف أيار، فالشاطئ مكتظ بشكل مخزٍ هذا الموسم. لقد التقيتُ بمئة فقمة على الأقل أتوا من شاطئ لوكانون للبحث عن مكان للمبيت. لم لا تستطيع المخلوقات البقاء حيث تنتمي؟».

«كثيرًا ما فكرت أننا سنكون أسعد لو ذهبنا إلى جزيرة أوتر بدلًا من هذا المكان المزدحم» قالت ماتكا.

«هه! لا يذهب إلى جزيرة أوتر سوى العزّاب» قال كاتش، «لو

ذهبنا إليها لقالوا أننا جبناء، علينا أن نحافظ على المظاهر يا عزيزتي»، وغمر رأسه بين كتفيه السمينتين بفخر وتظاهر بالنوم لدقائق قليلة، لكنه كان متيقظًا طوال الوقت يترصد قتالًا جديدًا.

بعد أن اجتمع كل الفقم وزوجاتهم على اليابسة صار صخبهم مسموعًا على بعد أميال كثيرة في البحر طاغيًا على صوت الرياح العاتية. عددهم على الشاطئ كان مليونًا على أقل تقدير، فقمات بالغة وأمهات وأطفال وعزّاب، يتشاجرون ويثغون ويزحفون ويلعبون معًا، ينزلون إلى البحر عصاباتٍ ويخرجون منه أفواجًا، يستلقون على كل شبر من الأرض على مد النظر، ويتناوشون في جماعات في قلب الضباب الذي يغمر نوفاستوشنا أغلب الأحيان، إلا حين تشرق الشمس لفترة وجيزة وتجعل كل شيء يتلألأ بألوان قوس قزح.

وسط كل تلك الفوضى ولد كوتيك، ابن ماتكا. ومثل كل الفقم الصغيرة، كان معظم جسده عبارةً عن رأس وكتفين، ولون عينيه اللامعتين أزرق شاحبًا، لكن شيئًا ما في فرائه لفت انتباه أمه، فأمعنت النظر إليه وقالت أخيرًا: «كاتش، طفلنا سيكون أبيض!».

«بحق الطحالب وأصداف المحار!»، زمجر كاتش، «ليس في العالم شيء اسمه فقمة بيضاء».

«سيكون الآن، لا شك بذلك» قالت ماتكا وهي تترنم بأغنية تغنيها كل فقمة لأطفالها:

لن تسبح حتى تبلغ ستة أسابيع

وإلا سيغرق رأسك الكبير

تتبعه زعانفك الصغيرة

ورياح الصيف والحيتان القاتلة

خطيرة على أطفال الفقم

وغيرها في البحر أخطار كثيرة

فاسبح واكبر وكن قويًا

عندها لن تضلّ

يا ابن البحر الواسع

بالطبع لم يفهم الصغير الكلمات حينها، كان يزحف مترنحًا بقرب أمه، وتعلّم أن يتهادى بسرعة بعيدًا عن طريق أبيه حين يشتبك مع أحد الفقم فيتدحرجان ويزأران على الصخور الزلقة.

اعتادت ماتكا على الذهاب إلى البحر لتأمين الطعام، فحظي كوتيك بوجبة واحدة كل يومين، لكنه كان يأكل عندها كل ما يقدر عليه فنما واشتد عوده. وأول ما فعله كان أن زحف نحو الداخل حيث التقى بعشرات آلاف الأطفال في مثل سنه، يلعبون معًا كالجراء، ثم ينامون على الرمل النظيف ثم يعودون للعب مجددًا. لم يعرهم الكبار في الحاضنات اهتمامًا، والتزم العزّاب أماكنهم فحظي الأطفال بأوقات لعب ممتعة.

عند عودتها من رحلة الصيد في البحر كانت ماتكا تذهب مباشرة نحو الملاعب وتنادي كوتيك كما ينادي الخروف ابنه، وتنتظر

أن تسمع غثاءه، فتتجه نحوه عبر أقصر الطرق، تضرب بزعانفها الأمامية يمينًا وشمالًا وتطيح بالفتيان رأسًا على عقب لتزيحهم عن طريقها. دائمًا كانت بضع مئات من الأمهات يبحثن عن أطفالهن في الملاعب، وكان الصغار دائمي الحركة والنشاط. لكن ماتكا أوصت كوتيك: «لن يؤذيك شيء هنا طالما لا تستلقي في الطين فتصاب بالجرب، أو تحك جرحًا أو خدشًا بالرمل الخشن، أو تذهب للسباحة عندما يكون البحر هائجًا».

لا تستطيع الفقمة الصغيرة السباحة أكثر من طفل صغير، ولا تكتمل سعادتها حتى تتعلم. عندما نزل كوتيك إلى البحر أول مرة حملته موجة إلى مكان أعمق مما ينبغي، فغاص رأسه الكبير وارتفعت زعانفه الخلفية الصغيرة إلى الأعلى كما قالت أمه في الأغنية، وكاد يغرق لولا أن أعادته الموجة التالية إلى حيث كان. تعلم بعدها أن يستلقي في البرك على الشاطئ ويترك الأمواج تغمره وترفعه وهو يجدّف داخلها، وأثناء ذلك كان يبقي عينًا يقظة على الأمواج الكبيرة التي قد تسبب الأذى. قضى أسبوعين يتعلم استخدام زعانفه، فيدخل إلى المياه متعثرًا ويخرج منها وهو يسعل وينخر، ويزحف إلى الشاطئ ليأخذ قيلولة قصيرة على الرمل ثم يعود مجددًا، حتى أدرك في النهاية أنه ينتمي إلى المياه حقًا.

يمكنك أن تتخيل كيف قضى أوقاته مع رفاقه يغطس تحت الأمواج المتلاحقة، أو يركب ظهر موجة عالية ليهبط معها وهي تنثر الزبد وتجتاح الشاطئ. أو يقف على ذيله ويحك رأسه كما يفعل

الكبار، أو يلعب «أنا ملك القلعة» على الأحجار الزلقة التي تبرز من الأمواج مغلفةً بالطحالب. وبين حين وآخر كان يرى زعنفة رقيقة مثل زعنفة قرش كبير تتحرك مع التيار قرب الشاطئ، فيعرف أن ذلك هو الحوت القاتل، أو الغرمبس، الذي يأكل صغار الفقم في كل فرصة سانحة، عندها كان يعود إلى الشاطئ مثل سهم، فتهتز الزعنفة مبتعدة ببطء كأنها لم تكن تنوي على شيء.

في أواخر تشرين الأول بدأت الفقم بمغادرة سانت بول إلى عمق البحر في جماعات من عائلاتٍ وقبائل، فتوقّف القتال على الحاضنات، وبدأ الهولوشيكي يلعبون في أي مكان يريدون.

«في العام المقبل سوف تصبح من الهولوشيكي» قالت ماتكا لكوتيك، «لكن عليك أن تتعلم صيد الأسماك هذا العام»، وانطلقا معًا عبر المحيط الهادئ، حيث علمته كيف ينام على ظهره، زعانفه مضمومة إلى جسده وأنفه الصغير بارز قليلًا عن سطح الماء، فلا يوجد مهد وثير كأمواج المحيط الهادئ الطويلة المهتزة. وعندما اجتاح شعور واخز جسده أخبرته ماتكا أنه يتعلم الشعور بالماء، وأن تلك الدغدغة الواخزة تعني أن طقسًا عاصفًا سيأتي وعليه أن يسبح مبتعدًا بسرعة، وقالت له: «خلال فترة قصيرة ستتعلم كيف تحدد وجهتك في البحر، لكن في الوقت الحالي سنتبع الدلفين فهو حكيم جدًا».

وكان سرب من الدلافين يغوص خلال المياه، فسارع كوتيك إلى اللحاق بهم وسأل لاهثًا: «كيف تحددون وجهتكم؟»، أدار قائد

السرب عينيه البيضاوين وانحنى قائلًا «ذيلي يدغدغني يا صغير، هذا يعني أن هناك عاصفة خلفي. اتبعني! عندما تكون إلى جنوب المياه الدبقة (ويقصد خط الاستواء) ويدغدغك ذيلك، اعلم أن أمامك عاصفة وعليك أن تتجه شمالًا. تعال معنا! المياه هنا تعطيني شعورًا سيئًا»، وكانت تلك إحدى أشياء كثيرة عرفها كوتيك خلال تعلمه المستمر.

علمته ماتكا أن يتبع سمك القد والهلبوت بمحاذاة قاع البحر، ويسحب ثعبان الماء من وكره بين الأعشاب المائية. علمته كيف يطوف حول حطام السفن القابع على عمق مئات الأمتار تحت سطح الماء، وينطلق كالرصاصة من إحدى النوافذ ويخرج من أخرى كما تفعل الأسماك، كيف يرقص على رؤوس الأمواج عندما يسري البرق في طول السماء وعرضها، وكيف يلوح بزعنفته بأدب لطائر القطرس قصير الذيل أو الفرقاط حين يهبطان مع الرياح، كيف يقفز مسافة ثلاثة أو أربعة أقدام عن سطح الماء مثل دلفين، ذيله محني وزعانفه قريبة من جانبيه. علمته أن يتجنب أكل السمك الطائر لأنه مليء بالعظام، وأن ينتزع لحم الكتف من سمك القد بأقصى سرعة على عمق عشرات الأمتار، وألا يتوقف أبدًا للنظر إلى مركب أو سفينة، خصوصًا مراكب التجديف. ومع نهاية الأشهر الستة لم يبق شيء ذو بال يخص الصيد في البحر لم يتعلمه كوتيك، ولم تلمس زعانفه اليابسةَ طوال ذلك الوقت.

ثم أتى يومٌ، بينما كان ينام تهويمًا في المياه الدافئة قرب جزيرة خوان فرنانديز، شعر بوهن وخمول يجتاح جسده كما يشعر البشر

حين يطل الربيع، وتذكر الشواطئ الصلبة المريحة في نوفاستوشنا على بعد سبعة آلاف ميل، والألعابَ التي لعبها مع رفاقه، ورائحة الطحالب، وخوار الفقم وقتالها. في تلك اللحظة استدار وأخذ يسبح بثبات نحو الشمال.

التقى في طريقه عشراتٍ من رفاقه ذاهبين إلى وجهته نفسها، فقالوا: «سلام يا كوتيك! هذه السنة سنصبح من الهولوشيكي، ونستطيع أن نرقص رقصة النار في الأمواج الطويلة قبالة لوكانون، ونلعب على العشب الجديد. بالمناسبة، من أين لك هذا الفراء؟». كان فراء كوتيك أبيضَ صافٍ في ذلك الوقت، ورغم فخره الشديد به لم يزد على قوله: «اسبحوا بسرعة! فعظامي تشتاق إلى اليابسة». هكذا وصلوا جميعًا إلى الشواطئ التي ولدوا عليها، وسمعوا الفقم الأكبر سنًا، وفيهم آباؤهم، يقاتلون في الضباب المتقلب.

رقص كوتيك في تلك الليلة رقصة النار مع الفقم الأخرى التي أتمت عامها الأول. رقصة النار؛ لأن البحر في ليالي الصيف يمتلئ بوميض فوسفوري من نوفاستوشنا حتى لوكانون، فتصنع الفقم خلفها في الماء أثرًا كالوقود المشتعل، وتنشر شررًا متوهجًا حين تقفز، وتتكسر الأمواج على الشاطئ بخطوط وانحناءات مضيئة.

بعد ذلك ذهبوا إلى اليابسة حيث أراضي الهولوشيكي وتقلبوا على القمح البريّ الفتيّ، يروون حكايات عما فعلوه حين كانوا في البحر. تحدثوا عن المحيط الهادئ كما يتحدث صبية عن غابة يذهبون إليها لجمع الجوز، ولو استطاع أحدٌ فهم تلك الأحاديث لرسم من

أجل ذلك خريطة مثالية للمحيط. فيما بعد نزل العزّاب أبناء الثلاثة والأربعة أعوام مرحين عن تل هتشنسون وهم يصيحون: «أفسحوا الطريق يا صغار! البحر عميق وأنتم لا تعرفون كل ما بداخله بعد، انتظروا حتى تسبحوا حول رأس هورن. هيه، أيها الصغير، من أين حصلت على ذاك الفراء الأبيض؟».

«لم أحصل عليه، لقد نما بنفسه» أجابه كوتيك، وهمّ بالاشتباك معه عندما ظهر من خلف كثيب الرمل رجلان لهما شعر أسود ووجه أحمر مسطح، ولم يكن كوتيك قد رأى إنسانًا من قبل، فسعل وطأطأ رأسه، وتجمع الهولوشيكي على بعد عدة ياردات وجلسوا يحدقون ببلاهة. لم يكن الرجلان سوى كيرك بوترين رئيس صيادي الفقم على الجزيرة، وابنه باتالامون. أتيا من القرية الصغيرة التي تبعد أقل من نصف ميل عن الحاضنات على الشاطئ، وشرعا يختاران فقمات ليسوقوها إلى المذابح، فقد كانت الفقم تساق كالخراف ليصنع من فرائها معاطف لاحقًا.

«ووه! انظر! هناك فقمة بيضاء!» قال باتالامون.

شحب وجه كيرك وغدا أبيض تحت ما تراكم عليه من شحم ورماد، فقد كان من الأليوت وهم قوم غير نظيفين، ثم أخذ يتمتم دعاءً، وقال: «لا تلمسه يا باتالامون، فلم يكن هناك شيء اسمه فقمة بيضاء منذ.. منذ ولدت. ربما يكون شبح العجوز زخروف الذي اختفى في العاصفة الكبيرة العام الماضي».

«لن أقترب منه، فهو يجلب النحس» قال باتالامون، «هل تظن

حقًا أنه زخروف العجوز وقد عاد؟ فأنا مدين له ببضعة بيوض نورس».

«لا تنظر إليه» قال كيرك، «اعترِض طريق تلك المجموعة من الفقم أبناء الأربع سنوات. على الرجال أن يسلخوا مئتين اليوم، لكن هذه بداية الموسم وهم حديثو العهد بالعمل، مئة تفي بالغرض. أسرع!».

قرقع باتالامون بعظمتي كتف فقمة أمام قطيع من الهولوشيكي فجمدوا تمامًا وهم يزفرون وينخرون، ثم اقترب أكثر فبدؤوا بالتحرك وكيرك يوجههم نحو الداخل. لم يقوموا بأية محاولة للعودة إلى رفاقهم. رآهم مئات ومئات من الفقم يساقون، لكنهم استمروا باللعب كأن شيئًا لم يكن. وحده كوتيك من أخذ يطرح أسئلة، لكن رفاقه عجزوا أن يخبروه أي شيء عدا أن أولئك الرجال يسوقون الفقم بهذا الشكل طوال شهر ونصف أو شهرين من كل سنة.

«سأتبعهم» قال كوتيك وهو يزحف في أثر القطيع، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما.

«الفقمة البيضاء تتبعنا» صرخ باتالامون، «هذه أول مرة تأتي فيها فقمة إلى المذابح وحدها».

«شش! لا تنظر خلفك» قال كيرك، «إنه شبح زخروف!، عليّ أن أكلم الكاهن بهذا الشأن».

لم يفصلهم عن المذابح أكثر من نصف ميل، لكنهم أمضوا

ساعة يقطعون تلك المسافة ببطء شديد، لأن كيرك يعرف أن الفقم إذا أسرعت ستسخن وسينفصل جلدها قطعًا قطعًا عند سلخها. تجاوزوا رأس سي لايون، ثم ويبستر هاوس، حتى وصلوا إلى سولت هاوس خلف مرأى الفقم على الشاطئ. تبعهم كوتيك لاهثًا متسائلًا، وظن أنه وصل إلى نهاية العالم، لكن ضجيج حاضنات الفقم خلفه كان عاليًا كهدير قطار في نفق.

جلس كيرك على الطحالب، ثم تناول ساعة جيب ثقيلة وترك القطيع ثلاثين دقيقة ليبرد. كان كوتيك يسمع ندى الضباب يقطر من حواف رأسه. ثم ظهر عشرة أو اثنا عشرة رجلًا، يحمل كل منهم هراوة حديدية طولها ثلاثة أو أربعة أقدام، وحين أشار كيرك إلى فقمة أو اثنتين ممن تعرضت للعض من رفاقها أو سخنت أكثر من اللازم، ركلها الرجال جانبًا بأحذيتهم الثقيلة المصنوعة من جلد رقبة الفظ، ثم قال كيرك: «فلنبدأ!»، وضرب الرجال رؤوس الفقم بسرعة مرعبة.

بعد عشر دقائق لم يعد كوتيك قادرًا على تمييز أصدقائه، فقد سلخت جلودهم من الأنف وحتى الزعنفة الخلفية، نزعت ورميت في كومة على الأرض. ما رآه كان كافيًا، فاستدار وعدا نحو البحر، وشاربه الصغير الجديد يرتجف رعبًا، وعند رأس سي ليون حيث تجلس أسود البحر المهيبة على حافة الشاطئ، غطس في الماء البارد وظل هناك يشهق بأسى.

«ما الأمر؟» قال أسد بحر بفظاظة، فأسود البحر لا تكلم أحدًا

عادةً، وأجاب كوتيك: «سكوتشني، أوتشن سكوتشني!» (أنا وحيد، وحيد جدًا!)، «إنهم يقتلون كل الهولوشيكي على كل الشطآن!».

التفت أسد البحر تجاه اليابسة وقال: «هراء! أصدقاؤك هناك يصدرون جلبتهم المعتادة، لا بد أنك رأيت العجوز كيرك يبيد قطيعًا منهم، إنه يفعل ذلك منذ ثلاثين عامًا».

«شيء مروع» قال كوتيك، وأتت موجة كبيرة من خلفه فاستعاد توازنه بسباحة لولبية بزعانفه، جعلته يتوقف على بعد ثلاثة إنشات من حافة صخرية مسننة.

«أحسنت أيها الصغير!» قال أسد البحر الذي يقدّر السباحة الجيدة، «أظن أن ما حدث مروع من وجهة نظرك، لكنكم أنتم الفقم حين تأتون إلى هنا عامًا بعد عام سيعلم البشر بذلك طبعًا، ولن يتوقف ما يحصل إلا إن وجدتم جزيرة لا يطؤها بشر».

«هل هناك جزيرة كهذه؟» قال كوتيك.

«لقد تبعتُ سمك الهلبوت عشرين عامًا، ولا أجرؤ على القول أنني وجدتها بعد. لكن اسمع، يبدو أنك تحب الحديث إلى الأكبر منك، لم لا تذهب إلى جزيرة الفظ وتتحدث إليه، ربما يعرف شيئًا يفيدك. لكن لا تستعجل هكذا، فالمسافة إلى هناك ستة أميال، ولو كنت مكانك لخرجت إلى الشاطئ وأخذت قيلولة أولًا أيها الصغير».

رآها كوتيك نصيحة جيدة، فسبح نحو شاطئه ثم خرج إلى اليابسة، ونام نصف ساعة مرتعشًا كعادة الفقمات. ثم اتجه مباشرة إلى جزيرة الفظ، وهي جزيرة صخرية صغيرة منخفضة، تقع

حول شمال شرق نوفاستوشنا، مليئة بجلاميد وشواطئ صخرية وأعشاش نوارس، ترعى فيها حيوانات الفظ وحيدة.

رسى كوتيك قرب الفظ العجوز، وهو كائن ضخم بشع منتفخ تغطيه البثور، سمين الرقبة طويل الأنياب، ينتمي إلى شمال المحيط الهادئ، ولا يملك أي تهذيب إلا وهو نائم. ونائمًا وجده كوتيك، تاركًا زعانفه الخلفية نصف غاطسة في أمواج الشاطئ.

«استيقظ!» صرخ كوتيك، فقد كانت النوارس تصدر ضجة عجيبة.

«هاه! همم! همفف! ما هذا؟» قال الفظ العجوز، ووجه بأنيابه ضربة إلى الفظ الراقد بجانبه فأيقظه، وذاك بدوره أيقظ من بجانبه، وهكذا حتى استيقظوا جميعًا وأخذوا يحدقون في كل اتجاه عدا الاتجاه الصحيح.

«هيه! أنا هنا» قال كوتيك وهو يقفز في الأمواج، فبدا مثل يرقة بيضاء صغيرة.

«عجبًا! ليتني.. أُسلخ!» قال الفظ العجوز، ونظروا جميعًا إلى كوتيك كما قد ينظر مجموعة من العجائز الناعسين إلى صبي صغير. لقد رأى كوتيك من السلخ ما يكفي ولم يكن مستعدًا لسماع المزيد عنه في تلك اللحظة، فبادر بالسؤال: «هل هناك مكان يمكن للفقم الذهاب إليه حيث لا يأتي البشر أبدًا؟».

«اذهب واكتشف بنفسك» قال الفظ وهو يغمض عينيه، «انصرف، نحن مشغولون هنا».

قفز كوتيك في الهواء كالدلفين وصرخ بأعلى صوته: «آكل المحار! يا آكل المحار!» لعلمه أن الفظ لم يلتقط سمكة في حياته رغم أنه يتظاهر بأنه كائن مرعب، ولا يأكل إلا المحار وأعشاب البحر.

طبعًا، شاركت في الهتاف طيور النورس الغلوكي والنورس أسود الساق والببغاء الغطاس، فهي على انتظار دائم لفرصة للتصرف بلؤم. وأخبرني ليمرشين، أن خمس دقائق مرت لم يمكن فيها سماعُ حتى طلقة سلاح على جزيرة الفظ، فكل سكانها كانوا يصيحون: «يا آكل المحار! ستاربيك! (أيها العجوز!)»، والفظ العجوز يتقلب من جانب إلى آخر يكح ويخور.

«والآن هل ستخبرني؟» قال كوتيك، وقد انقطع نفسه.

«اذهب واسأل خروف البحر» قال الفظ، «إن كان لا يزال على قيد الحياة بإمكانه أن يخبرك».

«كيف سأعرف خروف البحر حين أراه؟» قال كوتيك وهو يهمّ بالذهاب.

«إنه الكائن البحري الوحيد الأبشع من الفظ» صرخ نورس غلوكي وهو يحلق تحت أنف الفظ، «أبشع منه وبسلوك أسوأ! ستاربيك!».

ترك كوتيك النوارس لصراخها وسبح عائدًا إلى نوفاستوشنا، لكن لم يجد فيها من يتعاطف مع محاولته اكتشاف مكان هادئ للفقم. قالوا له أن الرجال يسوقون الهولوشيكي معهم دائمًا، وأنه جزء من عملهم، وإذا كانت رؤية الأشياء البشعة تؤرقه كان عليه

ألا يذهب إلى المسالخ. لكن لا أحد من الفقم الأخرى رأى القتل، وهذا ما ميزه عن رفاقه، بالإضافة إلى كونه فقمة بيضاء.

«كل ما عليك فعله هو أن تكبر وتصبح فقمة بالغة مثل أبيك وتكون لك حاضنة على الشاطئ، عندها سيتركونك وشأنك. خلال خمس سنوات ستصبح قادرًا على الدفاع عن نفسك» قال كاتش بعد أن سمع مغامرات ابنه.

حتى أمه الرقيقة ماتكا قالت: «لن تستطيع أبدًا وقف القتل، اذهب والعب في البحر يا كوتيك»، فذهب كوتيك ليرقص رقصة النار، لكن قلبه الصغير كان مثقلًا بالحزن.

غادر كوتيك الشاطئ في أبكر وقت ممكن من ذلك الخريف، وانطلق وحيدًا بفكرة في رأسه الصغير. كان يسعى للعثور على خروف البحر، إن كان في البحر كائن بهذا الاسم، والعثور على جزيرة هادئة بشواطئ صلبة مناسبة لعيش الفقم حيث لا يستطيع البشر الوصول إليهم. هكذا بحث واستقصى بنفسه من شمال المحيط الهادئ إلى جنوبه، يقطع بسباحته حتى ثلاثمئة ميل في اليوم والليلة. لاقى خلال ذلك من المغامرات أكثر مما يحكى، ونجى بأعجوبة من القرش الفرح، والقرش الببري، والقرش أبو مطرقة. وقابل السمك الثقيل المهذب، والمحار القرمزي المبقع الذي يرسو في المكان نفسه لمئات السنين ويصبح فخورًا بذلك، وقابل كل كائن وحشي يتسكع في طول البحر وعرضه، لكنه لم يلتق خروف البحر، ولم يعثر على جزيرة راقت له.

كلما وجد جزيرة ذات شاطئ صلب مناسب وخلفه تل للعب، كان يرى في الأفق دخان سفينة صيد تذيب دهن الحيتان، وهو يعرف ما معنى ذلك. أو يرى أن الفقم زارت الجزيرة من قبل وأبيدت، وعرف أن البشر حين يأتون مكانًا مرة يعودون إليه أخرى.

التقى بقطرس عجوز قصير الذيل أخبره أن جزر كيرغولين هي المكان الأفضل للتمتع بالهدوء والسكينة، وعندما وصل كوتيك إليها كاد يتحطم على جروف حجرية سوداء بشعة، وسط عاصفة برَد كثيفة وبرق ورعد. وعندما استطاع عبور العاصفة إلى الشاطئ وجد أن الفقم سبق أن سكنت هناك، وكان ذلك في كل الجزر الأخرى التي زارها.

عد ليمرشين قائمة طويلة من أسماء هذه الجزر، وأخبرني أن كوتيك أمضى خمسة مواسم يستكشف، ويرتاح أربعة أشهر كل عام في نوفاستوشنا حيث اعتاد الهولوشيكي على السخرية منه ومن جزره الخيالية. ذهب إلى غالاباغوس، وهو مكان جاف مروع عند خط الاستواء، كاد يشوى فيه حتى الموت، وذهب إلى جزر جورجيا، وجزر أوركني، جزيرة إمير الد، جزيرة العندليب، جزيرة غو، جزيرة بوفيه، جزر كروزيه، حتى إلى جزيرة ضئيلة جنوب رأس الرجاء الصالح. لكن حيثما ذهب يخبره أهل البحر الأشياء نفسها. أن الفقم أتوا من قبل إلى ذلك المكان وقتلوا جميعًا على يد البشر. حتى عندما سبح آلاف الأميال خارج المحيط الهادئ في طريق عودته من جزيرة غو، ووصل إلى مكان يدعى رأس التيارات، وجد بضعة مئات من الفقم المصابة بالجرب على إحدى الصخور وأخبروه أن البشر أتوا

إلى هناك أيضًا. كاد قلبه ينفطر لما سمع، فالتف حول الرأس ليعود إلى شاطئه، وفي طريقه إلى الشمال توقف ليرتاح على جزيرة مليئة بأشجار خضراء، وجد فيها فقمة هرمة تحتضر، فالتقط كوتيك من أجلها بعض الأسماك وعبر عن أسفه لحالها.

«إذًا، أنا عائد إلى نوفاستوشنا، ولن أكترث إذا ساقوني إلى المسالخ مع الهولوشيكي».

فقالت الفقمة العجوز: «حاول مرة أخرى، أنا آخر من بقي من قطيع ماسافويرا الضائع، وفي الأيام التي قتلنا فيها البشر بمئات الآلاف ترددت قصة على الشاطئ تقول أن فقمة بيضاء ستأتي يومًا من الشمال وتقود شعب الفقم إلى مكان آمن. أنا عجوز، ولن أعيش لأرى ذلك اليوم، لكن الآخرين سيرونه، حاول مرة أخرى».

لف كوتيك شاربه الجميل وقال: «أنا أول فقمة بيضاء تولد على الشواطئ على الإطلاق، وأنا أول فقمة، بيضاء أو سوداء، فكرت بالبحث عن جزيرة جديدة».

امتلأ حماسًا لذلك، وحين عاد إلى نوفاستوشنا ذلك الصيف رجته أمه أن يتزوج ويستقر، فهو لم يعد هولوشيكي، بل فقمة بالغة، بعُرف أبيضَ جعدٍ على كتفيه، وجسد ثقيل وضخم وشرس مثل أبيه.

«أمهليني موسمًا آخر» قال كوتيك، «تذكري يا أمي أن الموجة السابعة دائمًا هي التي تصل إلى مسافة أبعد على الشاطئ».

جمعته الصدفة بفقمة أخرى تفكر بتأجيل زواجها للعام المقبل،

فرقص معها رقصة النار قبالة شاطئ لوكانون، في تلك الليلة السابقة لرحلة استكشافه الأخيرة.

اتجه غربًا هذه المرة، لأنه عثر على سرب هائل من سمك الهلبوت، وكان بحاجة لمئة باوند من السمك يوميًا على الأقل ليحافظ على قوته. ظل يتبعهم حتى تعب، فالتف على نفسه وغط في النوم بين الأمواج المتتابعة التي تنتهي إلى جزر كوبر. كان يعرف ذلك الساحل جيدًا، لذا حين شعر بنفسه عند منتصف الليل يصطدم بخفة بالطحالب الكثيفة قال: «مم، المد قوي الليلة». تقلب تحت الماء ثم فتح عينيه ببطء ومدد جسده. ثم قفز كالقطة، فقد رأى كائنات ضخمة تجول في المياه الضحلة وترعى على أطراف الطحالب الكثيفة.

«ما هذه الكائنات بحق أمواج ماجلان العظيمة!» قال مشدوهًا.

لم يكونوا يشبهون الفظ، أو أسد البحر، أو الفقمة أو الدب أو الحوت أو القرش أو السمك أو الحبار أو المحار، أو أي كائن رآه كوتيك من قبل. طولهم عشرون أو ثلاثون قدمًا، ليس لهم زعانف خلفية، بل ذيلًا عريضًا كالرفش يبدو كأنه مصقول من جلد مبلل، وأشكال رؤوسهم هي الحماقة بذاتها. حين يفرغون من الأكل يتوازنون على أطراف ذيولهم في أعماق المياه، ينحنون لبعضهم بوقار ويلوحون بزعانفهم الأمامية كما يلوح رجل سمين بذراعه.

«إحم» قال كوتيك، «طاب يومكم أيها السادة»، فأجاب الكائن الضخم بالانحناء والتلويح بزعانفه الأمامية مثل بوّاب مهذب. وعندما بدؤوا بالأكل مجددًا لاحظ كوتيك أن شفتهم العلوية مشقوقة

نصفين، يباعدون بينهما مسافة قدم ويضمونهما على كومة من أعشاب البحر، ثم يدسون ما التقطوه في فمهم ويعلكون بوقار.

«يالها من طريقة فوضوية في الأكل» قال كوتيك، وبدؤوا بالانحناء مجددًا فبدأ يفقد أعصابه.

«حسنًا، إن كان لكم مفصل إضافي في زعانفكم الأمامية فلا داعي للتباهي به. فهمتُ أنكم تحسنون الانحناء، لكني أرغب في معرفة أسمائكم» قال كوتيك.

تحركت شفاههم المشقوقة وارتعشت، وحدقت به عيونهم الخضراء اللامعة، لكنهم لم يتكلموا.

«حسنٌ، أنتم الشعب الوحيد الذي التقيته يفوق الفظ بشاعةً وقلة تهذيب» قال كوتيك، وتراجع متعثرًا في الماء، فقد لمع في ذهنه ما قاله له النورس الغلوكي حين كان على جزيرة الفظ وهو ابن عام واحد، وأدرك أنه وجد خروف البحر أخيرًا.

استمر خراف البحر بالتهام الطحالب ولوكها وطحنها، وسألهم كوتيك أسئلة بكل لغة تعلمها في أسفاره، فشعوب البحار تتحدث لغات كثيرة كما البشر، لكن أحدًا لم يجبه لأنهم لا يستطيعون الكلام. يملكون في رقابهم ست فقرات عوضًا عن السبع المعتادة، ويقال في البحر أن ذلك يمنعهم من الحديث حتى إلى بعضهم. لكن، كما لاحظ كوتيك، فهم يملكون مفصلًا إضافيًا في زعانفهم الأمامية، وبالتلويح بها في عدة اتجاهات يصنعون ما يعادل رمزًا تلغرافيًا أخرق.

عند طلوع الصبح كان عرف كوتيك منتصبًا غضبًا، وغادره الصبر إلى حيث تذهب السلطعونات الميتة. عندئذ بدأ خراف البحر يسافرون شمالًا ببطء شديد، ويتوقفون من حين لآخر لعقد مجالس انحناء سخيفة. تبعهم كوتيك وهو يقول لنفسه: «شعب بهذا الحمق كان سيقتل منذ زمن طويل لو أنه لم يجد لنفسه جزيرة آمنة، وما يناسب خراف البحر يناسب الفقم، كله واحد، ليتهم يسرعون فقط».

كان اللحاق بهم متعبًا لكوتيك، لأنهم لم يتقدموا أكثر من أربعين أو خمسين ميلًا في اليوم، يتوقفون ليلًا للأكل، ويبقون قرب الشاطئ طوال الوقت، وفي طريقهم إلى الشمال كانوا يعقدون مجلس انحناء كل بضعة ساعات. أما كوتيك فقد سبح حولهم وفوقهم وتحتهم، ولم يستطع أن يحثهم على الإسراع ولو نصف ميل، وأوشك أن يقضم شاربه من نفاد صبره، إلى أن اكتشف أنهم يتبعون تيار ماء دافئ، عندها زاد احترامه لهم.

في إحدى الليالي غاصوا في المياه البراقة كما تغوص الأحجار، وللمرة الأولى منذ عرفهم بدؤوا يسبحون بسرعة. تبعهم كوتيك، وأدهشته سرعتهم، فلم يكن ليتخيل أن يكون خراف البحر سباحين مَهرة. اتجهوا إلى جرف صخري عند الشاطئ ينحدر عميقًا في المياه، وغاصوا في حفرة مظلمة تقع أسفله على عمق حوالي ثلاثين مترًا، سبحوا مسافة طويلة، وشعر كوتيك بحاجة ماسة للهواء قبل أن يخرج من النفق المظلم الذي قادوه خلاله.

«ياللهول!» قال كوتيك حين خرج يشهق ويزفر في المياه المفتوحة على الطرف الآخر من النفق، «كانت رحلة طويلة، لكنها تستحق العناء».

تفرق خراف البحر وبدؤوا يرعون بكسل على طول واحد من أروع الشواطئ التي رآها كوتيك على الإطلاق. كان هناك صخور مصقولة ناعمة ممتدة لأميال، مناسبة تمامًا لحاضنات الفقم، وخلفها أراضٍ للعب من رمل قاسٍ تنحدر نحو الداخل، وهناك أمواج طويلة لترقص فيها الفقم، وعشب طويل تتقلب عليه، وكثبان رملية تتسلقها، والأفضل من ذلك كله أن كوتيك عرف من شعوره في الماء، الشعور الذي لا يخدع فقمة أصيلة، أن البشر لم يطؤوا الجزيرة أبدًا.

أول ما فعله هو التأكد من إمكان صيد السمك، ثم سبح على طول الشاطئ وقام بعدّ الجزر الرملية المبهجة نصف المخفية في الضباب الكثيف. إلى الشمال من جهة البحر امتد خط من حواجز صخرية ومياه ضحلة وصخور تبقي أية سفينة على بعد ستة أميال من الشاطئ. وبين الجزر واليابسة امتدت مياه عميقة تصل حتى الجروف الصخرية العمودية، وفي مكان ما تحت تلك الجروف كان مدخل النفق.

«إنها مثل نوفاستوشنا، لكن أفضل بعشر مرات» قال كوتيك، «لا بد أن خراف البحر أحكم مما ظننت. لن يستطيع البشر أن يعبروا الجروف، هذا إن وجد أي بشر. والأرض الصخرية عند

البحر يمكن أن تفتت أية سفينة إلى شظايا. إن كان هناك مكان آمن في البحر فهذا هو».

بدأ يفكر بالفقمة التي تنتظره في نوفاستوشنا، ورغم أنه كان متلهفًا للعودة إلى هناك، ظل يستكشف البلد الجديد بدقة كي يستطيع الإجابة عن كل الأسئلة، ثم غاص ليتحرى مدخل النفق ودخله متجهًا جنوبًا. لا أحد يحلم بوجود مكان كهذا إلا خراف البحر أو الفقم، وحين نظر إلى الجروف الصخرية خلفه، لم يستطع أن يصدق أنه كان تحتها. أمضى في طريق العودة ستة أيام رغم أنه لم يبطئ في سباحته، وأول من رأى حين توقف قرب رأس سي ليون كان الفقمة التي تنتظره، وعرفت من النظرة في عينيه أنه وجد الجزيرة أخيرًا.

لكنه تعرض لسخرية الهولوشيكي ووالده كاتش وكل الفقم الأخرى حين أخبرهم بما اكتشف، وقال له واحد من الفقم في مثل سنه: «ما تقوله جميل يا كوتيك، لكنك لا تستطيع أن تأتي من مكان مجهول وتأمرنا بالرحيل هكذا، تذكر أننا كنا نقاتل من أجل حاضناتنا، أما أنت فلم تقاتل أبدًا، وفضلت التطواف في البحار»، ضحك الآخرون مما قال، وأخذ هو يتلفت من جانب لآخر. كان قد تزوج في ذلك العام وجعل من ذلك حدثًا عظيمًا.

«ليس لي حاضنة أدافع عنها، كل ما أريده هو أن أريكم جميعًا مكانًا تكونون فيه بأمان» قال كوتيك، «ما نفع القتال؟».

«آه، إن كنت تحاول الانسحاب فليس لدي ما أقوله لك» قال الشاب بضحكة ساخرة.

«هل ستأتي معي إن فزت؟» قال كوتيك، وبريق أخضر عبَر عينيه غضبًا لاضطراره أن يقاتل أصلًا.

«حسنٌ» قال الشاب بلا اكتراث، «إن فزتَ سآتي».

لم يكن لديه وقت ليغير رأيه، لأن كوتيك هجم برأسه وغرزت أسنانه في دهن رقبة خصمه، ثم رمى نفسه على وركه وسحبه عبر الشاطئ وقلبه، ثم زأر للفقم الأخرى: «لقد بذلت جهدي من أجلكم طوال المواسم الخمسة الماضية، ووجدت جزيرة ستكونون فيها بأمان، لكنكم لن تصدقوا إلا أن تُفصل رؤوسكم الحمقاء عن رقابكم، والآن سألقنكم درسًا، استعدوا!».

أخبرني ليمرشين، وهو الذي يرى عشرة آلاف فقمة بالغة تقاتل كل عام، أنه لم ير في حياته الصغيرة كلها شيئًا مثل هجوم كوتيك على الحاضنات، إذ أخذ يرمي بنفسه على أكبر الفقم، يمسكه من رقبته ويخنقه ويضربه حتى يخور طالبًا الرحمة، فيرميه جانبًا ويقاتل التالي.

لم يسبق لكوتيك أن صام أربعة أشهر متتالية كما تفعل الفقم البالغة كل عام، وجعلته رحلاته في أعماق البحر في حالة بدنية ممتازة، والأفضل من ذلك أنه لم يخض قتالًا من قبل.

انتصب عرفه الأبيض الجعد غضبًا، وومضت عيناه، ولمعت أسنانه الكبيرة، وأصبح منظره يخطف الأنظار.

رأى العجوز كاتش ابنَه يمزق ويسحب الفقم البالغة الرمادية المنقطة كما لو كانت سمك هلبوت، ويطيح بالهولوشيكي في كل

اتجاه، فزأر قائلًا: «قد يكون أحمق، لكنه أفضل مقاتل على الشواطئ! لا تهاجم والدك يا بني فهو معك!».

أجاب كوتيك بزئير، وتهادى سي كاتش العجوز ينفخ مثل قاطرة وشارباه منتصبان، بينما انكمشت ماتكا والفقمة المنتظر زواجها من كوتيك معجبتين برَجليهما. كان قتالًا مبهرًا، فقد قاتلا حتى لم يبق من الفقم من يجرؤ على رفع رأسه، عندها تبخترا على الشاطئ جنبًا إلى جنب وهما يخوران بفخر.

في الليل حين كان الشفق القطبي يومض عبر الضباب، تسلق كوتيك صخرة جرداء ونظر إلى الأسفل نحو الحاضنات المبعثرة والفقم الجريحة الدامية وقال: «حسنٌ، الآن قد لقنتكم درسًا».

«ياللهول! لم يكن الحوت القاتل ليثخن فيهم أكثر مما فعلت» قال العجوز سي كاتش وهو ينهض بمشقة بسبب جروحه البليغة، «أنا فخور بك يا بني، وزيادة على ذلك، سأذهب معك إلى الجزيرة، إن كانت موجودة فعلًا».

«اسمعوا يا خنازير البحر السمينة، من سيأتي معي إلى نفق خراف البحر؟ أجيبوا وإلا سألقنكم درسًا مجددًا» زأر كوتيك، وترددت على طول الشاطئ همهمة كتموّج المياه، «سوف نأتي» قالت آلاف الأصوات المنهكة، «سوف نتبع كوتيك، الفقمة البيضاء»، فغمر كوتيك رأسه بين كتفيه وأغمض عينيه بفخر، لكنه لم يعد فقمة بيضاء، بل مضرجًا بالأحمر من رأسه حتى زعانفه، ورغم ذلك لم يكن ليتنازل فينظر إلى جروحه أو يلمسها.

بعد أسبوع، غادر هو وجيشه المكون من قرابة عشرة آلاف من الهولوشيكي والفقم البالغة، متجهين شمالًا إلى نفق خراف البحر. قادهم كوتيك، ولقبتهم الفقم الباقية في نوفاستوشنا بالحمقى. لكن في الربيع التالي عندما التقوا جميعًا عند مناطق الصيد في المحيط الهادئ، أخبرت الفقم التي غادرت مع كوتيك أولئك الباقين حكاياتٍ كثيرةً مثيرة عن الشواطئ الجديدة وراء نفق خراف البحر، جعلت مزيدًا من الفقم تترك نوفاستوشنا.

بالطبع، لم ينجح الأمر من المرة الأولى. فالفقم ليست حيوانات ذكية وتحتاج وقتًا لتزن الأمور في رأسها، لكن بمرور الأعوام غادر مزيد منهم نوفاستوشنا ولوكانون وشواطئ أخرى إلى الشواطئ الهادئة المحمية، حيث يجلس كوتيك طوال الصيف يكبر ويسمن ويزداد قوة كل عام، والهولوشيكي يلعبون حوله، في ذلك البحر الذي لا يأتيه بشر.

لوكانون

(هذه أغنية البحر العظيم العميق، التي تغنيها فقم سانت بول عندما تعود إلى شطآنها في الصيف، وهي بمثابة نشيد وطنيّ حزين للفقم).

قابلت رفاقي في الصباح (ولكن، آه، أنا عجوز)
حين كانوا على الحافات الصخرية يزأرون
والموجة الصيفية قادمة تتدحرج
لقد سمعت أصواتهم ترتفع في كورس
وطغى غناؤهم على هدير الأمواج المتكسرة على الصخور
مليونا صوت عالٍ أنشد أغنية: على شواطئ لوكانون.

يغنون عن المحطات البهيجة إلى جانب البحيرات المالحة
وعن المجاميع التي تتخبّط على الكثبان الرملية

وعن رقصات منتصف الليل التي تُزبد البحر وتجعله لهباً
وقبل مجيء صيادي الفِقم كانوا ينشدون
أغنية شطآن لوكانون!

قابلت رفاقي في الصباح (ولن أقابلهم ثانية أبداً)
كانوا يغدون ويرحون في جحافل
أعتمت كلّ الساحل
وفوق الزبد في عرض البحر
إلى أبعد مكان يصله الصوت
رحّبنا بالمجاميع القادمة ورحّبنا بهم على الساحل،
وأنشدنا لهم أغنية شاطئ لوكانون
حيث القمح الشتوي طويل القامة
والأشنات مخضلة ومغضنة
وضباب البحر ندّى كل شيء
وأراضي لهونا، كلّها لامعة وناعمة ومصقولة
شطآن لوكانون، الديار التي ولدنا فيها

لقد قابلت رفاقي في الصباح وكان قد تشتّت جمعهم
لقد أطلق البشر النار علينا في الماء
وانهالوا علينا بالهراوات على البرّ

يسوقوننا إلى بيت الملح(*)

كما لو أننا خرفان سخيفة ودواجن

ومع ذلك بقينا نغني أغنية لوكانون

قبل مجيء صيادي الفقم

امض يا غوفروسكا إلى الجنوب

واحكِ لملوك البحر العظيم عن مصيبتنا

قبل أن تهبّ عاصفة هوجاء وفارغة كما بيوض القروش

وشطآن لوكانون لن ترى أبناءها بعدها أبداً

(*) بيت الملح هو المسلخ.

مكتبة
t.me/book4kid
مكتبة الطفل

الفصل الخامس
حكاية ريكي تيكي تافي

نادى ريكي أحمر العينين
على ناغ ذي الحراشف
في الحفرة التي تسلل لها
فاسمعوا ماذا قال أحمر العينين:
«اخرج يا ناغ، وواجه الموت!».

عيناً بعين، وجهاً لوجه.
-حافظ على الإيقاع يا ناغ
إن الأمر سينتهي بموت أحدنا!

-بكل سرور يا ناغ
ضربة بضربة، لفة بلفة
اهرب واختبئ يا ناغ!

هاه! لقد أخفق الموت المقلنس(*)

يا للأسف لقد أصابك يا ناغ!

تحكي هذه القصة عن الحرب الطاحنة التي خاضها ريكي تيكي تافي في حمامات منزل كبير في معسكر سيغولي. تلقى فيها مساعدةً من الطائر الخياط المدعو درزي، ونصيحةً من تشوشندرا، فأر المسك الذي لا يمشي وسط الغرفة أبدًا بل يتسلل دائمًا قرب الجدران؛ لكن القتال الحقيقي كان من نصيب ريكي تيكي وحده.

كان نمسًا، أشبه بقط صغير في فرائه وذيله، وأقرب إلى ابن عرس في شكل رأسه وعاداته، عيناه وقمة أنفه المضطرب وردية اللون، يمكنه أن يحك أي مكان من جسده بأي قدم يختار من أقدامه الخلفية أو الأمامية، أو ينفش ذيله حتى يبدو كفرشاة تنظيف القوارير، ويهتف حين يهرول عبر العشب الطويل: «ريكي تيكي تيكي تيكي تشيك!».

ذاتَ نهار، حمله فيضانٌ صيفي خارج الجحر الذي يسكنه مع أمه وأبيه ورماه في قناة على جانب الطريق، ظل يركل ويقرقر في الماء إلى أن وجد حزمة عشب صغيرة طافية هناك، تعلق بها حتى فقد وعيه، وعندما أفاق كان مستلقيًا في حر الشمس وسط ممر في حديقة، مبللًا متسخًا، وسمع صبيًا يقول: «إنه نمس ميت، فلنقم له جنازة».

(*) إنّ الكوبرا تفرش رأسها فيصبح مثل قلنسوة، والكلمة مذكورة في القصة. الموت المقلنس يعني الكوبرا.

«لا، لنأخذه ونجففه» قالت أمه، «ربما ليس ميتًا».

أخذوه إلى المنزل، هناك أمسك به رجل ضخم بين إبهامه وسبابته وقال أنه ليس ميتًا بل شبه مختنق. غطوه بالقطن ودفؤوه بجانب شعلة نار حتى فتح عينيه وعطس، فقال الرجل، وهو إنكليزيّ انتقل مع عائلته إلى المنزل حديثًا: «حسنٌ، لا تخيفوه، ولنرَ ما سيفعل». لكن إخافة أي نمس تكاد تكون أمرًا مستحيلًا، لأن الفضول يأكله من أنفه حتى ذيله، وشعار كل النموس «اركض واستكشف». ريكي تيكي كان نمسًا أصيلًا، نظر إلى القطن فرأى أنه لا يؤكل، ركض حول الطاولة، ثم جلس يرتب فراءه ويحك نفسه، ثم قفز على كتف الصبي.

«لا تخف يا تيدي» قال الرجل «هذه طريقته في تكوين الصداقات».

«آوتش، إنه يدغدغ أسفل ذقني» قال تيدي، ونظر ريكي تيكي إلى ما بين ياقته ورقبته، تشمم حول أذنه، ثم نزل عنه إلى الأرض حيث جلس يفرك أنفه.

«عجبًا، هذا وهو كائن بري!» قالت أم تيدي، «أظنه وديعًا هكذا لأننا عاملناه بلطف».

«هذه سجية كل النموس» قال زوجها، «إذا لم يضعه تيدي في قفص أو يمسكه من ذيله سيظل يركض داخلًا وخارجًا من المنزل طوال النهار، فلنعطه شيئًا يأكله»، أعطوه قطعة لحم نيئ أحبها كثيرًا، وعندما أنهاها خرج إلى الشرفة ونفش فراءه في أشعة الشمس كي يجف حتى الجذور، عندها شعر بتحسن.

«هناك الكثير من الأشياء لتكتشف في أرجاء هذا المنزل، أكثر مما يمكن لعائلتي أن تكتشف في حياة كاملة» قال لنفسه، «لا بد أن أبقى وأسكتشف»، وأمضى النهار كله يطوف في المنزل، فأوشك أن يغرق نفسه في أحواض الاستحمام، وغمس أنفه في الحبر على المكتب، ثم أحرقه بطرف سيجار الرجل الضخم بعد أن تسلق إلى حضنه ليرى كيف هي الكتابة. في الليل ركض إلى غرفة تيدي ليعرف كيف تضاء قناديل الكاز، ثم خلد تيدي إلى السرير فتسلق ريكي تيكي إليه أيضًا، لكنه كان رفيقًا مضطربًا لأنه ينهض ويتحرى مصدر كل صوت طوال الليل.

دخل الأم والأب إلى الغرفة قبل النوم لتفقد تيدي، كان ريكي تيكي صاحيًا على الوسادة فقالت الأم: «هذا الوضع لا يعجبني، قد يعض الولد».

«لن يفعل شيئًا كهذا» قال الأب، «تيدي في أمان أكبر مع هذا الوحش الصغير مما لو كان برفقته كلب حراسة، إن دخلت أفعى إلى الغرفة الآن..»، لكن أم تيدي لم تكن لتفكر بشيء فظيع إلى هذا الحد.

باكرًا في الصباح أتى ريكي تيكي إلى الإفطار على الشرفة راكبًا كتف تيدي، أعطوه موزًا وقطعة بيض مسلوق، فجلس في حضن كل منهم تباعًا، لأن كل نمس حسن التربية يأمل أن يصبح نمسًا منزليًا يومًا ما ويكون له غرف يتجول فيها، وبما أن أم ريكي تيكي كانت تعيش في بيت الجنرال في سيغولي، فقد علمته بدقة كيف يتصرف إن صادف أشخاصًا بِيض.

ثم خرج ريكي تيكي إلى الحديقة ليرى ما فيها، كانت حديقة كبيرة، نصفها فقط مزروع بشجيراتِ ورد من نوع مارشال نيل، كبيرةٍ مثل بيت صيفي، وأشجارِ ليمون وبرتقال، ومجموعات من البامبو وأجمات من العشب الطويل.

«هذه أرض صيد مذهلة» قال وهو يلعق شفتيه وينفش ذيله حماسًا للفكرة، ثم أخذ يهرول في الحديقة طولًا وعرضًا، يتشمم هنا وهناك إلى أن سمع أصواتًا حزينة من إحدى شجيرات الشوك، حيث بنى الطائر الخياط درزي وزوجته عشًا جميلًا بجذب ورقتي شجر وخياطة أطرافهما معًا بالألياف، وملءِ التجويف بالزغب والقطن. وجدهما جالسَين على حافة العش، يتأرجح بهما وهما يبكيان.

«ما الخطب؟» قال ريكي تيكي.

«نحن في غاية البؤس» قال درزي، «وقع واحد من فراخنا عن العش أمس، فأكله ناغ».

«همم، هذا مؤسف حقًا، لكنني غريب هنا، من هو ناغ؟».

ما كان من درزي وزوجته إلا أن انكمشا على نفسيهما في العش دون جواب، فقد صدر من العشب الكثيف أسفل الشجيرة هسيس منخفض مرعب جعل ريكي تيكي يقفز إلى الخلف مسافة قدمين، وبرز ببطء رأس ناغ، ثعبان الكوبرا الأسود الضخم، وقلنسوته العريضة. كان طوله خمسة أقدام من لسانه حتى ذيله، وحين رفع ثلث جسده عن الأرض وقف متمايلًا كما يتمايل عود هندباء برية في

الرياح، ثم نظر إلى ريكي تيكي بعيني الثعبان الخبيثتين اللتين لا تتغير تعابيرهما أيًا كان ما يفكر فيه، وقال: «أتسْأل من هو ناغ؟ أنا ناغ. لقد ميز الإله براهما كلّ شعبنا بعلامةٍ عندما فرشت الكوبرا الأولى قلنسوتها لتردّ الشمس عنه أثناء نومه، انظر إليها وارتعد خوفًا»، وفرش قلنسوته أكثر فأكثر، فرأى ريكي تيكي دائرتين واضحتين هما علامة العينين على ظهره، وخاف للوهلة الأولى، لكن يستحيل على النمس أن يظل خائفًا مدة طويلة. صحيح أن ريكي تيكي لم يقابل ثعبان كوبرا حيًا من قبل، لكن أمه كانت تطعمه الميت منها، وهو يعرف أن أي نمس بالغ خُلق ليقاتل الثعابين ويأكلها. كان ناغ يعرف ذلك أيضًا، وفي أعماق قلبه المتحجر، أحس بالخوف.

«حسنٌ» قال ريكي تيكي، وبدأ ذيله ينفش مجددًا، «فلندعِ العلامة جانبًا، هل تظن أن من حقك أن تأكل الفراخ من العش؟»

كان ناغ يفكر بصمت ويراقب أدقّ حركة في العشب خلف ريكي تيكي، مدركًا أن وجود نمس في الحديقة يعني الموت له ولعائلته عاجلًا أم آجلًا، لكنه أراده أن يتخلى عن حذره، فأخفض رأسه قليلًا وأماله إلى الجانب وقال: «دعنا نناقش الأمر، أنت تأكل البيض، فلم لا آكل أنا الطيور؟».

«خلفك! انظر خلفك!» غرد درزي.

ولم يُضع ريكي تيكي وقتًا بالنظر، بل قفز في الهواء أعلى ما يمكن وأزّ من تحته رأس ناغينا، زوجة ناغ الخبيثة. كانت تتسلل خلفه وهو يتكلم كي تقضي عليه. سمع هسيسها الوحشي وهو

يتفادى ضربتها، ثم كاد يهبط على ظهرها، ولو كان نمسًا بالغًا لعرف أن ذلك هو الوقت المناسب لكسر ظهرها بعضة واحدة، لكنه خاف من هجومها المرتد الذي يصيب كالسياط. لقد عضها بالفعل لكن ليس لوقت طويل، وقفز مبتعدًا عن ذيلها المتلوي ليتركها جريحة وغاضبة.

«أيها الشرير درزي!» قال ناغ، وقفز عاليًا بقدر استطاعته نحو العش في شجيرة الشوك، لكن درزي بناه بعيدًا عن متناول الأفاعي فتأرجح قليلًا فقط. شعر ريكي تيكي بعينيه تحمران وتسخنان، واحمرار عيني النمس علامة على غضبه، فجلس على ذيله وقدميه الخلفيتين مثل كنغر، ينظر حوله ويهذر بعصبية.

اختفى ناغ وناغينا خلال العشب كعادة الثعابين حين تخطئ ضربتها، لا تقول شيئًا ولا تعطي إشارة عما تنوي فعله تاليًا. لم يرغب ريكي تيكي باللحاق بهما لأنه لم يكن واثقًا من قدرته على التعامل مع ثعبانين في الوقت ذاته، لذا هرول مبتعدًا نحو ممر الحصى قرب المنزل وجلس ليفكر. كانت تلك معضلة بالنسبة له.

إن قرأت الكتب القديمة عن التاريخ الطبيعي، ستجد فيها أن النمس حين يقاتل ثعبانًا ويتعرض للعض، يبتعد ليأكل عشبة ما تشفيه، وهذا غير صحيح، فالنصر هو نتيجة لسرعة العين وسرعة الحركة، هجوم الثعبان ضد قفزة النمس، وبما أن أي عين لا تستطيع متابعة رأس الثعبان حين يهجم، هذا يجعل الأمر أكثر روعة من أية عشبة سحرية.

كان ريكي تيكي مدركًا صِغر سنه، وسرّ كثيرًا لتمكنه من تفادي ضربة من الخلف وازداد ثقةً بنفسه، وكان مستعدًا لتلقي بعض الدلال حين أتى تيدي راكضًا عبر الممر، لكن ما إن انحنى نحوه حتى تلوى شيء ما في التراب، وقال صوت صغير: «احذر، أنا الموت!».

كان ذلك صوت كاريت، الثعبان البني الصغير الذي يرقد مترقبًا على الأرض الترابية. عضته خطيرة كعضة الكوبرا، لكن لا أحد يعيره انتباهًا لصغر حجمه، لذا فهو يسبب أذىً أكبر للبشر.

احمرت عينا ريكي تيكي مجددًا، وتصدى لكاريت بحركات الاهتزاز والأرجحة التي ورثها عن عائلته، منظرها يثير الضحك لكنها طريقة مشي مثالية التوازن تمكنه من القفز أثناءها في أية زاوية أراد، وهذه ميزة خاصة في التعامل مع الثعابين.

ليته عرف أن ما يفعله أخطر من قتال ناغ، لأن صغر حجم كاريت يمكّنه من الالتفاف بسرعة كبيرة، وإن لم يعضه ريكي تيكي قرب رأسه فقد يصيبه هجومه المرتد في عينه أو شفته. لكنه لم يعرف ذلك، وظل يهتز إلى الأمام والخلف باحثًا عن ممسك مناسب، وعيناه بلون الدم.

أغار كاريت، فقفز ريكي تيكي جانبًا وحاول الهجوم، لكن الرأس الصغير الشرير الأغبر نزل كالسوط على بعد شعرة من كتفه، واضطر ريكي تيكي أن يقفز من فوق جسده، فتبعه على مقربة من قدميه.

صاح تيدي باتجاه المنزل، «هيه، انظروا! نمسنا يقتل ثعبانًا»، وسمع ريكي تيكي صرخة من أم تيدي. ثم خرج الأب حاملًا عصا، لكنه حين وصل كان كاريت قد اندفع مبتعدًا وريكي قد وثب وهبط فوقه خافضًا رأسه بين قدميه الأماميتين، عض ظهره في أعلى موضع استطاع الوصول إليه، ثم تدحرج مبتعدًا.

شلت العضة حركة كاريت، وأوشك ريكي تيكي أن يأكله ابتداء بالذيل كعادة عائلته على العشاء، لكنه تذكر أن الوجبة المشبعة تجعل النمس بطيء الحركة، وإن أراد الحفاظ على قوته وسرعته لا بد أن يحافظ على رشاقته، فابتعد ليأخذ حمام رمل تحت أغصان زيت الخروع بينما انهمك والد تيدي بضرب الثعبان الميت.

«ما الداعي لذلك؟ لقد أنهيت كل شيء بنفسي» فكر ريكي تيكي، ثم التقطته والدة تيدي من التراب وعانقته باكية لأنه أنقذ تيدي من الموت. قال والد تيدي أن وجوده معهم نعمة، وظل تيدي يحدق بعينين كبيرتين خائفتين. لكن ريكي تيكي كان مستمتعًا بكل تلك الجلبة التي لم يفهمها بالطبع، فلمَ لا تربت والدة تيدي على ابنها أيضًا حين يلعب بالرمل؟

تلك الليلة على العشاء، كان على استعداد لالتهام ثلاثة أضعاف ما يستطيع مما لذ وطاب وهو يتجول على الطاولة ذهابًا وإيابًا. لكنه ظل يتذكر ناغ وناغينا، ورغم سروره بالجلوس على كتف تيدي، وبالتربيت والدلال الذي تغمره به والدته، تحمرّ عيناه من وقت لآخر ويبدأ صرخته الطويلة «ريكي تيكي تيكي تشيك!».

حمله تيدي معه إلى السرير وأصر أن ينام تحت ذقنه. كان ريكي تيكي حسن التربية فلم يعض أو يخمش، بل انتظر حتى غط تيدي في النوم ليبدأ جولته الليلية في المنزل، وفي الظلام صادف فأرَ المسك تشوشندرا يتسلل قرب الجدار. تشوشندرا كائن صغير تعيس، ينشج ويئن طوال الليل محاولًا أن يستجمع قواه ليمشي إلى وسط الغرفة، لكنه لم يصل إلى هناك يومًا.

«لا تقتلني» قال تشوشندرا موشكًا على النحيب، «لا تقتلني يا ريكي تيكي!».

«هل تظن أن صائد الثعابين يقتل الفئران؟» قال ريكي تيكي بازدراء.

«من يقتل الثعابين تقتله» قال تشوشندرا بمزيد من الأسف، «وكيف أثق أن ناغ لن يظنني أنت في إحدى الليالي المظلمة؟».

«ليس هناك أي خطر» قال ريكي تيكي، «ناغ في الحديقة، وأعرف أنك لا تخرج إليها».

«أخبرني ابن عمي الفأر تشوا، أخبرني أن..» قال تشوشندرا ثم سكت.

«بم أخبرك؟».

«شش! ناغ في كل مكان يا ريكي تيكي، كان عليك أن تتحدث إلى تشوا في الحديقة».

«لم أكلمه، لذا عليك أن تخبرني، أسرع يا تشوشندرا وإلا

سأعضك!». جلس تشوشندرا وبكى حتى تدحرجت الدموع عن شاربيه، «أنا شخص مسكين، لم تواتني الشجاعة يومًا للذهاب إلى وسط الغرفة» وأخذ ينشج، «شش! لا يمكنني أن أخبرك أي شيء، ألا تسمع يا ريكي تيكي؟».

أصغى ريكي تيكي، كان البيت ساكنًا تمامًا، لكن هيئ له أنه سمع صوت خمش خافت للغاية، كصوت دبور يمشي على زجاج نافذة، صوتًا ضعيفًا لاحتكاك حراشف ثعبان على جدار قرميد.

«إنه ناغ أو ناغينا، يزحف داخل قناة الحمام» قال لنفسه، «أنت على حق يا تشوشندرا، كان علي أن أكلم تشوا».

أسرع ريكي تيكي إلى حمام تيدي، ولم يكن هناك شيء، ثم إلى الحمام في غرفة والدته، فوجد عند أسفل جدار الجص الناعم قرميدة نُزعت لفتح قناة لصرف الماء، وحين انسل بجانب الحاجز الحجري حيث يوضع الحوض سمع ناغ وناغينا يتهامسان خارجًا في ضوء القمر.

«إذا فرغ البيت من أهله سيضطر إلى الرحيل وعندها ستكون الحديقة لنا مجددًا» قالت ناغينا لزوجها، «ادخل بهدوء، وتذكر أنه يجب القضاء على الرجل الضخم الذي قتل كاريت أولًا، ثم اخرج ونادني لنطارد ريكي تيكي معًا».

«لكن هل أنت واثقة أننا سنكسب أي شيء من قتل هؤلاء الأشخاص؟» قال ناغ.

«سنكسب كل شيء، هل كان هناك أي نمس في الحديقة قبل

أن يسكن أحدٌ المنزل؟ طالما ظل المنزل فارغًا نكون ملوك الحديقة، وتذكر أنه ما إن يفقس بيضنا في مسكبة البطيخ، وذلك في الغد على الأرجح، سيحتاج أطفالنا إلى السعة والسكينة»

«لم أفكر في ذلك» قال ناغ، «سأذهب، لكن لا داعي لمطاردة ريكي تيكي لاحقًا، سأقتل الرجل الضخم وزوجته، والولدَ إن استطعت، ثم سأخرج بهدوء، عندها سيفرغ البيت ويرحل ريكي تيكي».

اقشعر جسد ريكي غضبًا وكرهًا، لكنه رغم غضبه أصيب بالذعر لرؤية الحجم الهائل لجسد ناغ وهو يدخل من القناة ويلتف على نفسه في حلقات، ثم يرفع رأسه لينظر إلى الحمام وعيناه تلمعان في الظلام.

«حسنٌ، إن قتلته هنا ستعلم ناغينا، وإن قاتلته وسط الحمام ستكون له الغلبة، ماذا عليّ أن أفعل؟» قال ريكي تيكي.

تموج جسد ناغ، ثم سمعه ريكي تيكي يشرب من جرة ماء كبيرة من الخزف الأحمر كانت تستخدم لملء الحوض.

«هذا جيد» قال ناغ، «عندما قتِل كاريت، كان الرجل الضخم يحمل عصا، ربما لا تزال بحوزته، لكنه لن يحملها معه إلى الحمام في الصباح. سأنتظر هنا حتى يأتي. ناغينا، هل تسمعينني؟ سوف أنتظر هنا في الداخل حتى الصباح»، ولم يأت جواب من الخارج، فعرف ريكي تيكي أن ناغينا غادرت.

لف ناغ جسده حلقة فوق حلقة حول الانتفاخ أسفل الجرة،

وجلس ريكي تيكي ساكنًا كالموت. بعد ساعة بدأ يتحرك عضلةً عضلة باتجاه الجرة حيث كان ناغ نائمًا، ونظر إلى ظهره الضخم يتساءل عن أفضل موضع للإمساك به.

«إن لم أكسر ظهره من القفزة الأولى سيظل قادرًا على القتال، وإن قاتل.. قُضي عليك يا ريكي!». نظر إلى سُمك رقبته تحت القلنسوة لكنه كان كثيرًا عليه، وعضةٌ عند الذيل ستزيد ناغ شراسة، «لا بد أن أعض الرأس» قال أخيرًا، «الرأس فوق القلنسوة، وعندما أتمكن منه عليّ ألا أفلته».

ثم قفز، وكان رأس ناغ يبعد عن الجرة مسافة قليلة، فأسند ريكي تيكي ظهره إلى انتفاخها ليستطيع تثبيت الرأس إلى الأسفل بعد أن أطبق أسنانه عليه، كانت لديه فرصة ثانيةٍ واحدة واستغلها جيدًا. عندئذٍ أخذ ناغ يضرب به يمينًا وشمالًا كما يلوح كلب بجرذ، لوح به على الأرض ثم إلى أعلى وأسفل وفي دوائر كبيرة. واحمرت عينا ريكي لكنه ظل متشبثًا بالجسد الذي نزل كالسياط على الأرض، قلب مغرفة القصدير وصحن الصابون وفرشاة الجلد، ثم خبط بالجزء المعدني من الحوض. ضغط أسنانه أكثر فأكثر واثقًا أنه سيُضرب حتى الموت، وفضّل أن يُعثر عليه قابضًا فكيه حفاظًا على سمعة عائلته. كان دائخًا ومتألمًا، وشعر بجسده يتفتت كلما سمع صوت شيء يرتطم خلفه كقصف الرعد. ثم أفقدته الوعيَ ريحٌ ساخنةٌ وحرقت نارٌ حمراء فراءه، فقد أيقظت الضجة الرجل الضخم وأطلق طلقتي بندقية على ناغ أسفل قلنسوته.

تشبث ريكي مغمضَ العينين واثقًا الآن أنه ميت، لكن رأس ناغ لم يتحرك، فأمسكه الرجل وقال: «إنه النمس مجددًا يا أليس. لقد أنقذ هذا الشاب الصغير حياتنا هذه المرة».

دخلت والدة تيدي بوجه شديد الشحوب، ورأت ما تبقى من ناغ. أما ريكي تيكي فقد جرجر نفسه إلى غرفة نوم تيدي وأمضى نصف ما تبقى من الليل يهز نفسه بلطف ليرى إن تفتت حقًا إلى أربعين قطعة كما تخيل.

في الصباح كان متيبسًا تمامًا، لكن مسرورًا بما حققه، وقال: «الآن علي أن أسوي الأمر مع ناغينا، وهي أسوأ من خمسة مثل ناغ. وموعد فقس البيض الذي تحدثت عنه غير معروف. يا للهول! علي أن أذهب للقاء درزي».

لم ينتظر ريكي تيكي الفطور وركض إلى شجيرة الشوك حيث كان درزي يغني أغنية النصر بأعلى صوته، بعد أن رمى عامل التنظيف جسد ناغ فوق كومة القمامة وانتشر خبر موته في كل الحديقة.

«هل هذا وقت الغناء يا كرة الريش الغبية؟» قال ريكي تيكي غاضبًا.

«مات ناغ، مات، مات!» غنى درزي، «أمسكه ريكي تيكي المقدام من رأسه بقوة، وأحضر الرجل الضخم سلاحه المتفجر، وانقسم ناغ نصفين! ولن يأكل أطفالي مجددًا».

«كل ذلك صحيح، لكن أين ناغينا؟» قال ريكي تيكي متلفتًا حوله بحذر.

«أتت ناغينا إلى قناة الحمام ونادت ناغ» تابع درزي، «لكن ناغ خرج على طرف مكنسة؛ كنسه الخادم ورماه على كومة قمامة. فلنغن للعظيم ذو العينين الحمراوين ريكي تيكي!» وأكمل درزي الغناء ملء حنجرته.

«لو استطعت الوصول إلى عشك لأوقعت فراخك عنه!» قال ريكي تيكي، «أنت لا تعرف كيف تفعل الشيء الصحيح في الوقت الصحيح. تجلس آمنًا هناك في عشك بينما أخوض حربًا هنا. توقف عن الغناء لدقيقة يا درزي».

«سأتوقف لأجل ريكي تيكي العظيم الوسيم» قال درزي، «ما الأمر يا قاتل الشرير ناغ؟».

«للمرة الثالثة، أين ناغينا؟».

«على كومة القمامة عند الإسطبل، تبكي حدادًا على ناغ. يعيش العظيم ريكي تيكي ذو الأسنان البيضاء!».

«يالأسناني البيضاء! هل سمعت من قبل أين تخبئ بيضها؟».

«في مسكبة البطيخ، عند الطرف القريب من الجدار حيث تسطع الشمس طوال النهار، خبأتْها هناك قبل أسابيع».

«ولم يخطر ببالك أن تخبرني بشيء مهم كهذا؟ قلتَ الطرف الأقرب للجدار إذًا؟».

«ريكي تيكي، قل لي أنك لا تنوي أكل بيضها؟».

«لا يا درزي، ليس هذا ما سأفعله. إن كان لديك ذرة من الفطنة

ستطير الآن نحو الإسطبل وتتظاهر أن جناحك مكسور وتترك ناغينا تطاردك إلى هنا عند الشجيرة. علي أن أصل إلى مسكبة البطيخ، لكن إن ذهبت الآن ستراني».

كان درزي كائنًا صغيرًا ذو عقل بوزن ريشة، يعجز عن جمع فكرتين في رأسه في الوقت ذاته، ولمجرد أن صغار ناغينا يفقسون من البيض كفراخه لم يظن في البداية أن من العدل قتلهم، لقد كان مثل البشر في كثير من الأشياء. لكن زوجته عصفورة نبيهة، أدركت أن بيوض الكوبرا تعني أفاعي كوبرا لاحقًا، لذا تركت درزي يدفئ الصغار ويكمل أغنيته عن موت ناغ، وطارت من العش.

عند كومة القمامة رفرفت بجناحيها أمام ناغينا وصرخت: «آه، لقد انكسر جناحي! رمى الصبي حجرًا عليّ وكسر جناحي»، ثم رفرفت باستماتة أكثر.

رفعت ناغينا رأسها وفحت، «لقد أنذرتِ ريكي تيكي عندما أوشكتُ على قتله، والحق كل الحق، أنك اخترتِ مكانًا سيئًا لتصابي فيه»، وانزلقت على التراب باتجاه زوجة درزي التي تابعت صراخها: «كسره الصبي بحجر!».

«حسنٌ! ربما يعزيك قليلًا بعد موتك أنني سأصفي حسابي مع الصبي. وكما يرقد زوجي ميتًا على كومة القمامة هذا الصباح، سيرقد الصبي في منزله بلا حراك قبل أن يحل المساء. ما نفع الهرب؟ سأمسكك على أية حال أيتها الحمقاء الصغيرة، انظري إلي!».

أدركت زوجة درزي خطورة النظر إلى ناغينا، لأن الطائر إن

نظر إلى عيني أفعى يفقده الخوف القدرة على الحركة، فتابعت رفرفتها وزقزقتها الحزينة دون أن تبتعد عن الأرض، وأسرعت ناغينا خطوها.

سمعهما ريكي تيكي تبتعدان عن الإسطبل فهرع إلى طرف مسكبة البطيخ الأقرب إلى الجدار، وهناك وسط كومة الأغصان والأوراق الميتة الدافئة فوق البطيخ، وجد خمسًا وعشرين بيضة مخبأة بدهاء، حجم كل منها بحجم بيض النبطم لكن بجلد مائل للبياض عوضًا عن القشرة.

«وصلتُ في الوقت المناسب تمامًا» قال ريكي تيكي عندما رأى الأجنة ملتفة داخل الجلد، فهو يعرف أن كلًا منها يستطيع قتل رجل أو نمس في اللحظة التي تفقس فيها البيوض. سارع فورًا إلى عض قمة كل بيضة حريصًا على سحق الأجنة، وقلبَ الأغصان عدة مرات ليرى إن أغفل أيًا منها، حتى بقيت في النهاية ثلاث بيوض فأخذ يضحك مع نفسه، عندها سمع زوجة درزي تصرخ: «ريكي تيكي، لقد استدرجت ناغينا نحو المنزل، وقد دخلت إلى الشرفة، و.. ياللهول، أسرع، إنها تنوي القتل!».

سحق ريكي تيكي بيضتين، ثم تدحرج إلى الخلف نازلًا عن نبتة البطيخ يحمل في فمه البيضة الثالثة، وهرول إلى الشرفة بسرعة وأقدامه بالكاد تلمس الأرض. كان تيدي هناك مع أمه وأبيه على مائدة الإفطار، ورآهم ريكي تيكي لا يأكلون شيئًا، بل يجلسون كالتماثيل شاحبي الوجوه، وناغينا ملتفة على الحصير بجانب كرسي

تيدي على مسافة تسمح بهجمة سهلة على ساقه العارية، تتمايل وتغني أغنية النصر.

«يا ابن الرجل الضخم الذي قتل ناغ، لا تتحرك، لستُ جاهزة بعد، انتظر قليلًا» فحت ناغينا، «ابقوا ساكنين ثلاثتكم، إن تحركتم سأهاجم، وإن لم تتحركوا سأهاجم، أيها الحمقى، يا قتلة زوجي العزيز».

ثبت تيدي عينيه على والده الذي لم يستطع أكثر من أن يهمس: «اجلس ساكنًا يا تيدي، عليك ألا تتحرك، ابق ساكنًا يا تيدي».

عندها صاح ريكي تيكي: «التفتي يا ناغينا، واجهيني وقاتلي».

«أتيتَ في الوقت المناسب» قالت دون أن تزيح عينيها، «سأصفي حسابي معك خلال لحظات، انظر إلى أصدقائك يا ريكي تيكي، إنهم هادئون شاحبو الوجوه. إنهم خائفون، لا يجرؤون على الحركة، وإن اقتربتَ خطوة واحدة سأهاجمهم».

«انظري إلى بيضك في مسكبة البطيخ قرب الجدار» قال ريكي تيكي، «اذهبي وانظري يا ناغينا!».

استدارت ناغينا نصف استدارة ورأت البيضة على الشرفة فقالت: «آه! هاتها».

وضع ريكي كفيه حول البيضة واحتقنت عيناه بالدم، «ما ثمن بيضة الأفعى؟ ما ثمن صغير الكوبرا؟ صغير الكوبرا الملكي، آخر من بقي من الحاضنة؟ فالنمل يأكل الآخرين هناك عند مسكبة البطيخ».

استدارت ناغينا تمامًا ناسية كل شيء من أجل البيضة الأخيرة، ورأى ريكي تيكي والدَ تيدي يطلق يده الكبيرة ليمسك بتيدي من كتفه ويجره عبر الطاولة مع فناجين الشاي بعيدًا عن متناول ناغينا.

«خدعتك خدعتك دعتك تك تك تشك تشك» قهقه ريكي تيكي، «الصبي بأمان، وأنا، أنا، أنا الذي أمسكت بناغ من قلنسوته في الحمام ليلة أمس»، ثم بدأ يقفز على أقدامه الأربعة ورأسه قريب من الأرض، «لقد لوح بي يمينًا وشمالًا لكنه لم يستطع التخلص مني، ومات قبل أن يأتي الرجل الضخم ويفجره إلى نصفين، أنا الذي فعلتها! ريكي تيكي تشك تشك! تعالي إذًا يا ناغينا، لن تظلي أرملة لوقت طويل، تعالي وقاتليني».

عرفت ناغينا أنها خسرت فرصة قتل تيدي، ورأت البيضة بين مخالب ريكي تيكي، فقالت خافضة قلنسوتها «أعطني البيضة يا ريكي تيكي، أعطني آخر بيضة لي وسأذهب ولن أعود مجددًا».

«نعم ستغيبين دون رجعة، لأنك ستذهبين إلى كومة القمامة مع زوجك، قاتلي يا أرملة ناغ! ها قد ذهب الرجل الضخم ليحضر بندقيته! قاتلي!».

كان ريكي تيكي يقفز حول ناغينا محافظًا على مسافة تحميه من هجمتها، وعيناه كجمرتين متوهجتين، فاستجمعت قواها وانقضت عليه، وقفز ريكي تيكي إلى الخلف. هاجمت مرارًا ومرارًا، وفي كل مرة يصطدم رأسها بقوة على حصير الشرفة، فتتمالك نفسها كما يستعيد النابض شكله. ثم أخذ ريكي تيكي يرقص في حلقة ليصبح

خلفها. دارت لتبقى وجهًا لوجه معه، وذيلها إذ يحتك بالحصير يصدر صوتًا كحفيف أوراق جافة تجرفها الرياح.

نسي ريكي تيكي البيضة، لا تزال على الشرفة وناغينا تقترب منها أكثر فأكثر، حتى التقطتها بفمها أخيرًا بينما كان يلتقط أنفاسه، ثم استدارت نحو درجات الشرفة وانطلقت كالسهم عبر الممر في الحديقة وريكي تيكي من خلفها.

عندما تهرب الكوبرا دفاعًا عن حياتها تنطلق كما ينطلق سوط نحو رقبة حصان، وأدرك ريكي تيكي أن عليه الإمساك بها وإلا ستبدأ المتاعب من جديد. اتجهت مباشرة نحو العشب الطويل قرب شجيرة الشوك، وسمع ريكي وهو يركض صوت درزي لا يزال يغني أغنية النصر السخيفة. لكن زوجته كانت أكثر حكمة، فطارت خارج عشها عندما اقتربت ناغينا وأخذت ترفرف بجناحيها قرب رأسها، ولو أن درزي ساعدها لاستطاعا عكس مسارها، لكن ناغينا اكتفت بخفض رأسها والاستمرار. مع ذلك ساعدت لحظة التأخير تلك في وصول ريكي تيكي إليها، وعندما نزلت إلى الحفرة حيث كانت تسكن مع ناغ، أطبق أسنانه البيضاء الصغيرة على ذيلها ونزل معها.

يندر أن يُقدم أي نمس مهما كان حكيمًا وناضجًا على اللحاق بكوبرا إلى جحرها. كانت حفرة مظلمة، ولم يعرف ريكي تيكي متى ستتسع وتفسح لناغينا مجالًا للالتفاف والهجوم عليه. تمسك بها بضراوة وأبرز قدميه لتكبح تقدمه على المنحدر المظلم في التربة الدافئة الرطبة.

ثم توقف العشب عند مدخل الحفرة عن الاهتزاز، فقال درزي «إنها نهاية ريكي تيكي! يجب أن نغني أغنية موته، لقد مات المقدام ريكي تيكي، ستقتله ناغينا الشريرة تحت الأرض لا محالة»، وارتجل أغنية مأساوية، وما إن وصل إلى الجزء الأكثر تأثيرًا حتى اهتز العشب مجددًا، وخرج ريكي تيكي من الحفرة مغطىً بالتراب، يجرجر قدمًا بعد أخرى ويلعق شاربيه.

توقف درزي عن الغناء بصرخة قصيرة، ونفض ريكي تيكي بعض الغبار عن فرائه وعطس ثم قال: «لقد انتهى كل شيء، لن تخرج الأرملة مجددًا»، وسمع قوله النملُ الأحمر الذي يعيش بين سوق العشب، وبدأ ينزل أرتالًا ليرى إن كان ما يقوله صحيحًا.

تكور ريكي تيكي على نفسه في العشب ونام حيث هو، ظل نائمًا حتى وقت متأخر في المساء، فقد أنجز عملًا شاقًا.

«سأعود إلى المنزل الآن» قال حين استيقظ، «أخبر الطائر النحّاس يا درزي، وهو سينشر خبر موت ناغينا في الحديقة».

والطائر النحاس هو عصفور يصدر صوتًا يماثل تمامًا صوت مطرقة صغيرة حين تضرب وعاء نحاسيًا، وسبب إصداره الدائم لذلك الصوت هو أنه المنادي في كل حديقة هندية، يذيع الأخبار لكل من يرغب بسماعها. بينما كان ريكي تيكي على الطريق إلى المنزل سمع نغم ندائه «انتباه!» كجرس عشاء صغير، ثم بدأ بصوت منتظم: «دنغ دونغ توك! مات ناغ، دونغ! ماتت ناغينا! دنغ دونغ توك!»، وجعل الخبرُ كل طيور الحديقة تزقزق،

والضفادعَ تنق، لأن ناغ وناغينا كانا يأكلانها إضافة إلى صغار العصافير.

عندما وصل ريكي تيكي إلى المنزل خرج تيدي وأبوه وأمه التي كانت لا تزال شديدة الشحوب من الإغماء، وكادوا يبكون عليه. في تلك الليلة أكل كل ما قدم إليه حتى لم يستطع أن يأكل المزيد، وغفا على كتف تيدي حيث رأته الأم حين دخلت لتطمئن عليهم في وقت متأخر من الليل.

«لقد أنقذ حياتنا وحياة تيدي» قالت لزوجها، «فكر بالأمر، لقد أنقذ حياتنا جميعًا».

ولأن نوم النمس خفيف أفاق ريكي تيكي قافزًا وقال: «أوه! هذا أنتِ، لماذا تزعجين نفسك؟ كل أفاعي الكوبرا ماتت، ولو لم تمت فأنا هنا».

كان من حقه أن يفخر بنفسه، لكنه لم يصبح مغرورًا، وحرس تلك الحديقة بأنيابه وقفزاته كما ينبغي لنمس أصيل، حتى لم تعد تجرؤ أي كوبرا على أن تمد رأسها داخل الأسوار.

أغنية درزي

(التي غناها على شرف ريكي-تيكي-تافي)

أنا مغنٍّ وخياط

لذا فمباهجي مضاعفة

فخور بأغنيتي حدّ السماء

فخور ببيتي الذي خيّطت

أنسج موسيقاي فوق وتحت

كما نسجت البيت الذي خيّطت

ارفعي أيتها الأم رأسك

وغنّي لفراخك ثانية

فإن الموت الشرير الذي كان يتربّص بنا

قد هلك

إن الموت يقبع ميتاً في الحديقة

والرعب الذي كان يختبئ بين الأزهار صار عاجزاً

ومطروح ميتاً على كومة الروث

ومن هذا الذي خلّصنا؟
أخبرني بعشّه وباسمه
إنه ريكي، الشجاع، الأصيل
تيكي ذو مقلتي اللهب
إنه ريكي-تيكي-تيكي، ذو الناب العاجي
الصياد بمقلتين من اللهب

أوصل له شكر الطيور
التي تنحني له وريش ذيولها منفوش
وأثنِ عليه بكلمات العندليب
كلا، بل بكلماتي
فاسمعوا!
سأغني عن ريكي ذي الذيل الأسطواني كالقنينة
ومقلتي اللهب

*وهنا قاطعه ريكي-تيكي وضاعت بقية الأغنية.

الفصل السادس
حكاية توماي سائس الفيلة

سأتذكر من كنتُ، فقد سئمت من الحبال والقيود
سأتذكر قوّتي القديمة وكلّ طباع الغاب
لن أبيع ظهري للبشر بعد اليوم
من أجل حزمة قصب سكر
سأعود إلى قومي، أهل الغاب في أوجارهم
سأبقى معهم حتى يطلع النهار
حتى ينبلج الفجر
سأعود إلى قبلات الريح النقيّة
وحضن الماء الصافي
سأنسى القيد في كاحلي
وأكسر وتد السلسلة التي تقيدني
وسأزور أحبابي الضائعين
ورفاقي الأحرار

اسمه كالاناغ، أي الثعبان الأسود؛ وهو فيلٌ خدم الحكومة الهندية سبعة وأربعين عامًا بكل طريقة يقدر عليها منذ تم اصطياده. كان ابن عشرين عامًا حينها، ما يجعل سنه قريبة من السبعين، وهي سن الكهولة بالنسبة للفيلة. ما زال يذكر يوم دفع مدفعًا عالقًا في الطين العميق ولبادةٌ جلدية كبيرة تحمي رأسه، كان ذلك قبل الحرب الأفغانية عام ١٨٤٢، ولم يكن قد بلغ أوج قوته بعد.

أسِرت أمه معه في حملة الصيد نفسها، اسمها رادها بياري، أي رادها الحبيبة. أخبرته قبل أن تسقط أنيابه اللبنية الصغيرة أن الفيل الذي يخاف يصاب بالأذى دومًا، وأدرك قيمة نصيحتها تلك حين رأى قذيفة تنفجر لأول مرة، فتراجع وهو يصرخ ليصطدم بكومة من البنادق، ونخزته حرابها في أكثر الأماكن إيلامًا. لذا أقلع عن الخوف قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين، وأصبح بذلك الفيل الأكثر شعبية وتلقيًا للرعاية بين فيلة الحكومة الهندية.

لقد حمل خيامًا وزنها ألفٌ ومئتي باوند في رحلة عبر الهند العليا، ونقلته مرةً رافعة بخاريةٌ إلى ظهر سفينة أبحرت به أيامًا عدة إلى بلد غريب ووعر بعيدًا عن الهند، هناك جعلوه يحمل مدفع هاون على ظهره، ورأى الإمبراطورَ ثيودور يرقد ميتًا في ماغدالا، ثم عاد على متن تلك السفينة مستحقًا ميدالية الحرب الحبشية، حسب ما قال الجنود.

بعد ذلك بسنواتٍ عشرٍ رأى رفاقه الفيلة يموتون من البرد والصرع والجوع وضربة الشمس في مكان في الشمال اسمه علي

مُسجد. تم إرساله بعدها إلى مولمين على بعد آلاف الأميال في الجنوب ليجرّ ويكوم عوارض كبيرة من خشب الساج في معامل الأخشاب، وكاد يقتل فيلًا صغيرًا متمردًا يتنصل من حصته في العمل. ثم أنهي عمله في نقل الأخشاب وتم توظيفه مع عشرات الفيلة الأخرى المدربة، للمساعدة في إمساك الفيلة البرية في تلال غارو. فالحكومة الهندية تحمي الفيلة بشدة، وخصصت دائرة لمطاردتها واصطيادها وترويضها، وإرسالها عبر البلاد إلى أماكن تحتاجها للعمل.

كان طوله عشرة أقدام عند كتفيه، وقد قُص ناباه ليصبح طولهما خمسة أقدام، وغلف طرفاهما بصفائح نحاسية لحمايتهما من التشقق، لكنه يستطيع ببقية نابيه المقطوعين أن يفعل ما لا يقدر عليه فيل آخر بأنيابه الكاملة المدببة. بعد استدراج الفيلة البرية بحذرٍ أسابيعَ طويلة عبر التلال، تدخل الحظيرةَ النهائية وقد بلغ عددها أربعين أو خمسين، فتهبط خلفها البوابة المعلقة المصنوعة من جذوع أشجار مربوطة إلى بعضها، ويتلقى كالاناغ الأمر بالدخول إلى ذاك الهرج والمرج. يكون ذلك ليلًا في الغالب، حين يصعب تقدير المسافات في ضوء المشاعل المرتجف. عندها يختار الفيلَ الأكبر والأشرس ويبرحه ضربًا حتى يهدأ، بينما يقوم الرجال من فوق ظهور الفيلة الأخرى بتطويق الفيلة البرية الأصغر بالحبال وإحكام ربطها.

كان مقاتلًا مخضرمًا، خبيرًا في طرق القتال، إذ تصدى مرة في الماضي لهجمة نمر جريح، حيث لف خرطومه الطري ليبعده عن الأذى، ثم أطاح بالنمر في منتصف قفزته بضربة منجلية سريعة من

رأسه، وهي حركة ابتكرها بنفسه، فأوقعه أرضًا ثم ركع فوقه بركبتيه الهائلتين حتى فارق الحياة بعد عواء وشهيق، وأضحى مجرد كتلة فراء مخطط على الأرض ليسحبها كالاناغ من ذيلها.

«نعم، ذلك «الثعبان الأسود» لا يهاب شيئًا غيري» قال توماي الكبير، وهو سائق كالاناغ، وابن توماي الأسود الذي أخذه إلى الحبشة، وحفيد توماي سائس الفيلة الذي كان حاضرًا عند اصطياده، «لقد رأى ثلاثة أجيال منا تطعمه وتعتني به، وسوف يعيش ليرى الرابع».

«إنه يخافني أيضًا» قال توماي الصغير واقفًا بطوله البالغ أربعة أقدام، تستر جسدَه ذو الأعوام العشر خرقةٌ وحيدة. هو الابن الأكبر لتوماي الكبير، والذي سيشبّ ليأخذ مكان أبيه على رقبة كالاناغ، حسب التقاليد، ويحمل المنخس الحديدي الثقيل الذي بليَ على يد أبيه وجدّه ووالد جدّه. كان يعني ما يقول، فقد ولد في ظل كالاناغ، ولعب بطرف خرطومه قبل أن يتمكن من المشي، واصطحبه إلى الماء بعد أن خطا أولى خطواته، ولم يكن كالاناغ ليفكر بعصيان أوامره الصغيرة الصارمة، ناهيك عن إيذائه، منذ حمله توماي الكبيرُ رضيعًا صغيرًا أسمرَ تحت أنيابه وأمره أن يؤدي السلام لسيده المستقبلي.

«نعم، إنه يخافني» أكّد توماي الصغير، ثم سرى بخطوات واسعة نحو كالاناغ، وصفه بالخنزير العجوز السمين وأجبره على رفع قدميه واحدة تلو الأخرى، ثم قال: «واه! أنت فيل ضخم بالفعل»، وهزّ

رأسه ذو الشعر المنفوش مقتبسًا قول أبيه: «ربما تدفع الحكومة المال من أجل الفيلة، لكنها تنتمي إلينا نحن الساسة، وعندما تكبر يا كالاناغ سيأتي ملك هندي غني يشتريك من الحكومة لحجمك وسلوكك، ولن يكون لديك ما تفعله سوى حمل أقراط ذهبية في أذنيك وهودج ذهبي على ظهرك وقطعة قماش حمراء موشاة بالذهب على جانبيك. ستمشي في مقدمة موكب الملك، وسأكون جالسًا على رقبتك أحمل بيدي منخسًا فضيًا، وأمامنا رجال بعصيّ ذهبية يصيحون: أفسحوا لفيل الملك! سيكون ذلك رائعًا يا كالاناغ، لكن ليس بروعة هذا الصيد في الأدغال».

«همم! لستَ سوى صبي جامح مثل صغار الجواميس» قال توماي الكبير، «هذا السعي صعودًا وهبوطًا عبر التلال ليس الوظيفةَ الأفضل في الحكومة، إنني أتقدم بالسن وأمقت الفيلة البرية. أعطني ثكنة فيها فيلة مجندة، ومربطًا لكل منها وأوتادًا كبيرة أوثقها إليها بأمان وطرقًا عريضة معبدة للتدريب، بدلًا من هذا التجوال والتخييم. آآه، ثكنة كانبور كانت جيدة، يوجد سوق بقربها، وكنا نعمل ثلاث ساعات في اليوم فقط».

تذكر توماي الصغير ثكنة الفيلة في كانبور بصمت. لقد فضل حياة التخييم، وكره تلك الطرقات الواسعة المعبدة والخروج اليومي لاقتلاع العشب من أراضي الرعي، والساعاتِ الطويلةَ التي لم يكن لديه ما يفعله فيها سوى مشاهدة كالاناغ يتململ في حظيرته.

لقد أحبّ تسلق الطرقات الوعرة التي لا يستطيع سوى فيل أن

يمشي فيها، والنزول إلى الوادي العميق. أحب أن يلمح الفيلة البرية ترعى على بعد أميال كثيرة، ويرى الخنزير والطاووس يركضان مذعورَين تحت أقدام كالاناغ. أحبَّ الأمطار الدافئة التي تحجب الرؤية وتجعل البخار يتصاعد من التلال والوديان، والصباحاتِ الجميلة الملفوفة بالضباب حين لا يعرف أحد أين سيخيم في تلك الليلة، والقيادة الثابتة المتأنية للفيلة البرية، وهياج ولهيب وجلبة الليلة الأخيرة من الصيد، إذ تدلف الفيلة إلى الحظيرة مثل صخور في انهيار أرضي، وحين تكتشف أنها محبوسة ترمي بنفسها على أعمدة السور الثقيلة، فتلجَم عنها بالصراخ والمشاعل الملتهبة ووابل من طلقات البارود.

حتى صبي صغير يمكن أن يقدم العون هناك، وتوماي يعدل ثلاثة صبية، يتناول مشعلًا ويلوح به ويصرخ بأعلى صوته. لكن المتعة الحقيقية تبدأ وقت الإخلاء، إذ يبدو الخندق، وهو الاسم الذي يطلق على الحظيرة، مثل مشهد من نهاية العالم، يخاطب الرجال بعضهم بالإشارات لأنهم لا يقدرون على سماع أصواتهم، ويتسلق توماي الصغير إلى قمة أحد الأعمدة المرتجفة المحيطة بالحظيرة، ويتحرك فوق كتفيه، شعره المبعثر الذي حورت الشمس لونه، فبدا مثل عفريت في ضوء المشعل. في لحظات الهدوء المؤقت يمكن سماع صيحاته الحادة لتشجيع كالاناغ تطغى على صوت الصراخ والاصطدامات وضربات الحبال الثقيلة وأنين الفيلة المربوطة، «مايل مايل كالاناغ!» (هيا هيا أيها الثعبان الأسود) «دان دو!» (اضربه بأنيابك!) «سومالو! سومالو!» (انتبه! احذر!) «ماروا! مار!» (اضربه! اضربه!) «انتبه

للعمود! هاي! هاي! كيا!!»، كان يصيح بينما يتنقل القتال الطاحن بين كالاناغ والفيل البري عبر الخندق، فيمسح صيادو الفيلة المسنون العرق عن أعينهم، ويحرصون على الإيماء لتوماي الصغير وهو يرقص من المتعة فوق الأعمدة.

لكنه لم يكتف بالجلوس والاستمتاع، فقد انزلق عن العمود في إحدى الليالي وانسلّ بين الفيلة كي يرمي طرف حبل سائب إلى أحد السائقين، بعد أن أفلت من يده وهو يحاول أن يربط رجل أحد صغار الفيلة، فصغارها تسبب المتاعب أكثر من الفيلة البالغة، لكن كالاناغ أمسكه بخرطومه وسلمه إلى توماي الكبير الذي صفعه عدة صفعات وأعاده إلى موقعه على العمود.

في اليوم التالي وبخه وقال: «أليس الاعتناء بالفيلة المجندة وحمل بعض الخيام كافيًا حتى تذهب لصيد الفيلة البرية من تلقاء نفسك أيها الصعلوك الصغير؟ لا بد أن هؤلاء الصيادين الحمقى يكسبون أقل مما أكسب، لقد حدثوا الخواجة بيترسن عن هذا الموضوع».

خاف توماي الصغير، فلم يكن يعرف الكثير عن الرجال البيض، لكن الخواجة بيترسن كان أروعهم بالنسبة إليه. كيف لا وهو رئيس عمليات الخندق، الرجل الذي اصطاد كل الفيلة من أجل حكومة الهند، والذي يعرف عن طبائعها أكثر من أي أحد آخر.

«ثم ماذا.. ماذا سيحدث؟» قال توماي الصغير.

«ما الذي سيحدث! ستحدث مصيبة، الخواجة بيترسن رجل مجنون، وإلا ما الذي يجبره على صيد هذه الشياطين المتوحشة؟

قد يأمرك أن تصبح صياد فيلة، فتنام أينما كان في تلك الأدغال المحمومة، ثم تُسحق حتى الموت في الخندق. سنكون بنعمة لو انتهى هذا الهراء على خير. سوف تنتهي الحملة الأسبوع القادم، وسوف نعود إلى مواقعنا في السهول لنمشي على طرقات معبدة وننسى كل هذا الصيد. لكنني يا بني غاضب لأنك تدخلت في عمل يخص هؤلاء الأسّاميين القذرين قاطني الأدغال. أنا أدخل مع كالاناغ إلى الخندق لأنه لا يطيع أحدًا غيري، وهو فيل مقاتل لا يحتمل أن يقيّد. لذا أجلس بوقار كما يليق بسائس فيلة، وليس مجرد صياد. أقول سائسًا، أي رجلًا يأخذ راتبًا تقاعديًا بعد انتهاء خدمته. هل يليق بعائلة توماي سائسي الفيلة أن يتم سحق أحدهم تحت الأقدام في طين الخندق؟ أيها الولد السيئ! أيها المزعج عديم الفائدة! اذهب واغسل كالاناغ واعتنِ بأذنيه، وتأكد من عدم وجود شوك في أقدامه، وإلا سيأخذك الخواجة بيترسن ويجعل منك صيادًا للفيلة البرية، متتبعًا لآثار أقدامها، دبَّ أدغال.. هه! يا للعار! اغرب عن وجهي!».

ابتعد توماي الصغير دون أن ينبس بكلمة، لكنه أفضى بأحزانه لكالاناغ وهو يتفقد أقدامه، ثم قال وهو يقلب حافة أذنه اليمنى الضخمة: «لا يهم، لقد ذكروا اسمي أمام الخواجة بيترسن، وربما.. ربما.. ربما.. من يعلم؟ ها! لقد انتزعت شوكة كبيرة!».

مضت الأيام التالية في جمع الفيلة معًا، حيث تترك الفيلة البرية التي أسرت حديثًا لتتجول بين بضعة فيلة مروضة لمنعها من إثارة

المشاكل في رحلة العودة إلى السهول، بالإضافة إلى إحصاء الملاءات والحبال والأشياء التي بليت أو ضاعت في الغابة.

أتى الخواجة بيترسن على ظهر فيلته الذكية بودميني، كان يتجول في التلال لدفع مستحقات المخيمات مع قرب انتهاء الموسم، وكان موظفٌ من أهل البلد جالسًا خلف طاولة تحت إحدى الأشجار ليعطي للسائقين أجورهم. كلما أخذ رجل أجره كان يعود إلى فيله وينضم إلى الصف الواقف مستعدًا للمغادرة، أما الصيادون والمتعقبون والضاربون، والموظفون الدائمون في الخندق الذين يبقون في الأدغال سنين متواصلة، فقد جلس بعضهم على ظهور الفيلة التي تنتمي إلى القوات الدائمة للخواجة بيترسن، وأسند الآخرون ظهورهم إلى الأشجار وأسلحتهم بين أذرعهم، يسخرون من السائقين المغادرين، ويضحكون حين تخرج الفيلة الجديدة عن الصف وتتجول في المكان. تقدم توماي الكبير نحو الموظف وخلفه توماي الصغير، فقال ماتشوا أبًا، رئيس المتعقبين، لصديق له بصوت خفيض: «هاك فيلًا جيدًا على الأقل. لكنها خسارة أن يرسل عفريت الأدغال الصغير هذا ليهرم في السهول».

عندها أصبح الخواجة بيترسن كله آذانًا مصغية، كما ينبغي لرجل يستطيع سماع صوت الكائنات الأكثر هدوءًا؛ الفيلةِ البرية. استدار في مكانه على ظهر بودميني حيث كان يجلس طوال الوقت وقال: «ماذا قلت؟ لم أسمع يومًا عن سائق فيلة من أهل السهول يملك من الفطنة ما يمكنه من ربط حتى فيل ميت».

«ليس رجلًا، بل صبيًا، لقد دخل إلى الخندق في رحلة الصيد الأخيرة، ورمى لذاك المدعو بارمو طرف الحبل ونحن نحاول أن نبعد الفيل الصغير ذو البقعة على كتفه عن أمه»، وأشار ماتشوا أبًا إلى توماي الصغير. نظر إليه الخواجة بيترسن فانحنى.

«رمى حبلًا؟ إنه أصغر من وتد، ما اسمك أيها الصغير؟» قال الخواجة بيترسن.

لم يستطع توماي الصغير من خوفه أن يتكلم، أشار بيده إلى كالاناغ الذي كان واقفًا خلفه، فأمسكه بخرطومه وحمله ليصبح بمستوى جبهة بودميني أمام الخواجة العظيم، ثم غطى وجهه بيديه، فقد كان مجرد صبي، وعدا ما يخص الفيلة فقد كان مجرد طفلٍ خجول كبقية الأطفال.

«أوه!» قال الخواجة بيترسن، وارتسمت ابتسامة تحت شاربيه، «ولمَ علمت فيلك هذه الحركة؟ أليساعدك على سرقة قرون الذرة من أسقف المنازل حين تنشر لتجف؟».

«ليس الذرة يا راعي الفقراء، بل البطيخ» قال توماي الصغير، فانفجر كل الرجال الجالسين حوله بالضحك، لأن معظمهم علّم فيله تلك الحيلة في صغره. كان توماي مرتفعًا ثمانية أقدام في الهواء، لكنه تمنى لو ينزل هذه الأقدام الثمانية تحت الأرض.

«إنه ابني توماي، أيها الخواجة» قال توماي الكبير متجهمًا، «إنه ولد سيئ جدًا وسينتهي به الأمر في أحد السجون أيها الخواجة».

«أشك في ذلك» قال الخواجة بيترسن، «إن صبيًا في سنه

يقدر على مواجهة حظيرة كاملة، لا ينتهي إلى السجن. هاك أيها الصغير، هذه أربعة آنات لتنفقها على الحلوى، لأنك تملك رأسًا صغيرًا ذكيًا تحت كومة الشعر الهائلة تلك، يومًا ما قد تصبح صيادًا أيضًا»، فقطب توماي الكبير حاجبيه أكثر من ذي قبل، وتابع الخواجة بيترسن: «لكن تذكر أن الحظائر ليست مكانًا مناسبًا للعب الأطفال».

«هل عليّ ألا أدخل إلى هناك أبدًا أيها الخواجة؟» سأل توماي الصغير بعد شهقة كبيرة.

«نعم»، وابتسم الخواجة مجددًا، «عندما ترى رقصة الفيلة سيكون ذلك هو الوقت المناسب، تعال إليّ حين تراها وسأسمح لك بدخول كل الحظائر».

أخذتهم موجة ضحك جديدة، فقد كانت تلك طرفة قديمة متداولة بين صيادي الفيلة، وتعني أنه لن يصبح صيادًا أبدًا. فلم ير أحد فيلة ترقص من قبل. في الغابة فسحات كبيرة ممهدة مخبأة تسمى ساحات رقص الفيلة، لكن حتى هذه لا يعثر عليها إلا مصادفة، وعندما يتفاخر أحد السائقين بمهارته وشجاعته يسأله السائق الآخر: «ومتى رأيت الفيلة ترقص؟».

أنزل كالاناغ توماي الصغير فانحنى مجددًا وابتعد مع أبيه. أعطى الآنات الأربعة الفضية لأمه التي كانت ترضع أخاه الصغير، ثم رُفعوا إلى ظهر كالاناغ، وبدأ الصف الطويل من الفيلة التي تصرخ وتنخر يدرج هابطًا التلال نحو السهول. كانت مسيرةً

حافلةً بسبب الفيلة الجديدة التي تسببت بالمشاكل عند كل عبور للنهر، وتطلبت استدراجًا أو ضربًا كل عدة دقائق.

أخذ توماي الكبير ينخز كالاناغ بحقد من شدة غضبه، أما توماي الصغير فقد أسكته فرحه، لقد لاحظه الخواجة بيترسن وأعطاه مالًا، فشعر كما يمكن لجندي أن يشعر إن ناداه رئيسه من بين الصفوف وأثنى عليه.

«ماذا كان الخواجة بيترسن يقصد برقصة الفيلة؟» قال أخيرًا لأمه بهمس.

سمعه توماي الكبير وزمجر: «أنك لن تصبح أبدًا واحدًا من ثيران التلال هؤلاء الذين يدعون صيادين، هذا هو قصده. هيه! أنت في المقدمة، ما الذي يسد الطريق؟».

استدار سائق أسّاميّ يقف أمامه بعد فيلين أو ثلاثة وصرخ بغضب: «أحضر كالاناغ واجعله يعلم هذا الفيل الصغير لديّ حسن التصرف. لمَ كان على الخواجة بيترسن أن يختارني للنزول مع الحمير أمثالكم من سكان حقول الأرز؟ أحضر فيلك إلى جانبي يا توماي واجعله ينخز الآخرين بأنيابه. بحق آلهة التلال، إما أن هذه الفيلة الجديدة ممسوسة، أو أنها تستطيع شم رائحة رفاقها في الأدغال».

ضرب كالاناغ الفيل الجديد على أضلاعه ضربة قطعت أنفاسه، وقال توماي الكبير: «لقد أفرغنا التلال من الفيلة البرية في الحملة الأخيرة، وليس ما يحصل سوى نتيجةً لقيادتكم المستهترة. هل عليّ أن أحافظ على النظام في الصف كله؟».

«اسمع ما يقول!» قال السائق الآخر، «يقول أمسكنا بكل الفيلة! هاها! كم أنتم حكماء يا أهل السهول. أي أحد عدا المعاتيه الذين لم يروا الأدغال في حياتهم، يعرف أن الفيلة تدرك انتهاء حملات الصيد لهذا الموسم، لذا فإنها الليلة سوف.. لكن لمَ أضيع حكمتي على سلحفاة الماء هذا؟».

«سوف ماذا؟» قال توماي الصغير

«آه، أنت هنا أيها الصغير! حسنٌ، سأخبرك لأنك سريع البديهة. الفيلة سوف ترقص، ولذا يجدر بأبيك، الذي أفرغ التلال من كل الفيلة، أن يعقد الحبال على الأوتاد عقدتين هذه الليلة».

«ما هذا الكلام؟» قال توماي الكبير، «أمضينا أنا وأبي أربعين سنة نرعى الفيلة، ولم نسمع يومًا خبلًا كهذا عن فيلة ترقص».

«صحيح، هذا لأن رجلًا يسكن كوخًا في السهول لن يعرف أكثر من الجدران الأربعة لكوخه. اترك فيلك غير مربوطة الليلة وانظر ماذا سيحدث. وبالنسبة لرقصهم، لقد رأيتُ المكان الذي.. أوبّا! كم انعطافًا يوجد لنهر ديانغ؟ ها نحن أمام ممر ضحل مجددًا وعلينا أن نجعل الفيلة الصغيرة تعبر المياه. هيه، أنت في الخلف، توقف».

هكذا، بالثرثرة والمشاحنات والخوض في مياه الأنهار أكملوا مسيرتهم الأولى نحو مكان أشبه بمخيم استقبال للفيلة الجديدة، لكن الفيلة فقدت صوابها قبل الوصول إلى هناك بوقت طويل. قيدت أرجلها الخلفية إلى أعمدة السور الضخمة، ووُضعت حبال

إضافية على الجديدة منها، وأكوام علف أمامها، ثم عاد سائقو التلال إلى الخواجة بيترسن في شمس العصر، ينبهون سائقي السهول أن يكونوا أكثر حذرًا تلك الليلة، ويضحكون كلما سئلوا عن السبب.

قدّم توماي الصغير عشاءً لكالاناغ، ومع حلول المساء تجول في المخيم جذلان يبحث عن طمطم، وهو طبل يضرب براحة اليد. فالطفل الهندي حين تملؤه الفرحة لا يركض ويصدر ضجة عشوائية، بل يجلس وحيدًا في طقس احتفالي. لقد تحدث الخواجة بيترسن إلى توماي الصغير! لو لم يجد ما يبحث عنه لسقط مريضًا، لكن بائع الحلويات في المخيم أعاره طمطمًا صغيرًا، فجلس عاقدًا رجليه أمام كالاناغ مع ظهور أولى النجوم، الطمطم في حضنه، وهو يعزف ويعزف، ويزيد العزف كلما فكر بالشرف الكبير الذي حصل له، جالسًا وحده بين أعلاف الفيلة. لم يكن هناك لحن أو كلمات، لكن صوت العزف وحده أسعده.

كانت الفيلة الجديدة تشد حبالها وتصرخ من حين لآخر، وتناهى إليه صوت أمه في المخيم تغني لأخيه الصغير لينام، أغنيةً عن الإله العظيم شيفا الذي علم كل الحيوانات ما يجب أن تأكل. كانت تهويدة لطيفة، يقول مقطعها الأول:

شيفا الذي أغدق المحاصيل وأجرى الرياح
جالس عند عتبة يوم منذ زمن طويل
يقدّر للكل نصيبهم من الطعام والكدح والمصير
من الملك على عرشه، إلى الشحاذ على الباب

لقد خلق شيفا الحامي كل شيء،
ماهاديو! ماهاديو! كل شيء من صنعه
خلق الشوك للجمل، والعلف للماشية
وقلب الأم ليغفو عليه طفلها الناعس
يا طفلي الصغير!

دخل توماي الصغير مضيفًا ضرباتٍ مرحةً عند نهاية كل جملة، حتى نعس وتمدد على العلف بجانب كالاناغ. أخيرًا بدأت الفيلة تستلقي واحدًا تلو الآخر كعادتها إلى أن بقي كالاناغ واقفًا وحده على يمين الصف، يهتز ببطء من جانب إلى آخر، مقربًا أذنيه إلى الأمام ليستمع إلى الرياح الليلية وهي تهب ببطء شديد عبر التلال. كان الهواء ممتلئًا بأصوات الليل الكثيرة التي تجتمع لتشكل صمتًا واحدًا كبيرًا؛ طرقة ساق بامبو على أختها، حركة الكائنات بين العشب، صوت انسياب الماء في البعيد، وخمش وزقزقة عصفور نصف مستيقظ، فالعصافير تستيقظ في الليل أكثر مما نتخيل.

نام توماي الصغير لبعض الوقت، ثم استيقظ ليجد ضوء القمر غامرًا وكالاناغ لا يزال واقفًا وأذناه مائلتان. تقلب محدثًا حفيفًا في العلف، ورأى انحناءة ظهر كالاناغ تغطي نصف النجوم في السماء، عندئذٍ سمع صوتًا من مكان بعيد، من مسافة جعلته لايزيد عن صوت ذرة تعبر السكون، إنه نهيم فيل بري، «هوت هوت».

قفزت كل الفيلة كما لو أصيبت بإطلاق نار، وأيقظت بهمهماتها الساسةَ أخيرًا، فأتوا لتثبيت الأوتاد بمطارق كبيرة وشدوا بعض

الحبال وعقدوا أخرى إلى أن هدأ الجو تمامًا. كاد أحد الفيلة الجدد يقتلع وتده، فنزع توماي الكبير السلسلة عن ساق كالاناغ وقيد الرجل الأمامية للفيل الآخر بالخلفية، لكنه ربط رجل كالاناغ بخيط من ألياف جوز الهند وأخبره أن يتذكر أنه محكم الوثاق. عرف أنه وأباه وجدّه فعلوا الشيء نفسه مئات المرات من قبل، لكن كالاناغ لم يستجب للأمر بقرقرة كالمعتاد، بل وقف ساكنًا ينظر عبر ضوء القمر إلى انحناءات تلال غارو العظيمة، رأسه مرفوع قليلًا وأذناه مبسوطتان كمروحتين.

«اعتن به إن اضطرب في الليل» قال توماي الكبير لابنه، ثم دخل إلى الكوخ ونام. كان توماي الصغير موشكًا على النوم أيضًا حين سمع صوت انقطاع خيط جوز الهند، ودلف كالاناغ خارج السور ببطء وهدوء كما تخرج غيمة من مدخل الوادي. جرى توماي الصغير خلفه في ضوء القمر حافي القدمين، ينادي بصوت خفيض: «كالاناغ! كالاناغ! خذني معك يا كالاناغ!»، فاستدار كالاناغ دون صوت، خطا ثلاث خطوات راجعًا نحو الصبي، أنزل خرطومه، ورفعه إلى رقبته، ولم يكد توماي الصغير يعدل جلسته حتى انسل فيله داخل الغابة.

دوى من صفوف الفيلة صراخ عنيف هبط من بعده السكون على كل شيء، وبدأ كالاناغ بالمضي، تخمش جانبيه أحيانًا حزمة من عشب طويل كما تخمش موجة جانبي سفينة، أو تحتكّ كتلة من عرائش الفلفل البري بظهره، أو يئز ساق بامبو لمس كتفه. لكن

بين ذاك وتلك كان يتحرك دون أي صوت على الإطلاق، ينسل كالدخان عبر غابة غارو الكثيفة. طريقهم كان صاعدًا، وعلى الرغم من رؤية توماي الصغير للنجوم من الشقوق بين الأشجار إلا أنه لم يعرف في أي اتجاه يذهبون.

وصل كالاناغ إلى قمة المرتفع وتوقف دقيقة، ورأى توماي الصغير قمم الأشجار منقطة وزغبة على امتداد أميال وأميال تحت ضوء القمر، والضبابَ الأبيض المزرقّ فوق النهر في الوادي، ثم انحنى إلى الأمام وأجال بصره، وشعر أن الغابة تبدو مستيقظة هناك في الأسفل، مستيقظة ونشيطة ومزدحمة. مر بجانب أذنه خفاشُ فاكهةٍ بنيٌّ كبير، وخشخشت أشواك قنفذ في الأجمة، وفي الظلام بين جذوع الأشجار سمع خنزيرًا بريًا يتشمم الأرض ويحفر بقوة في التربة الدافئة الرطبة.

ثم أغلقت الأغصان فوق رأسه مجددًا وبدأ كالاناغ يهبط إلى الوادي، ليس بهدوء هذه المرة، بل باندفاع شديد كما يسقط مدفع عن منحدر. تحركت أطرافه الضخمة بثبات كالمكابس تقطع مسافة ثمانية أقدام في الخطوة الواحدة، وأصدر جلد مفاصله المجعد حفيفًا. تمزقت النباتات على جانبيه بصوت كتمزق القماش، والشجيرات التي يبعدها بكتفيه عن يمينه وشماله كانت ترتد وتضربه على خاصرته، وتدلت من أنيابه فروع طويلة من عرائش متشابكة وهو يلوح برأسه من جانب إلى آخر كي يشق لنفسه طريقًا للعبور. أما توماي الصغير فقد دنا بجسده نحو رقبة

الفيل الهائلة خشية أن يطيح به غصن متأرجحٌ أرضًا، وتمنى لو يرجع إلى المخيم.

عند أسفل الوادي جعله الضباب الليلي يقشعر بردًا، وازداد العشب طراوة تحت أقدام كالاناغ فأخذت تخوض في الوحل أكثر في كل خطوة، إلى أن داس في المياه فتناثرت وعلا صوت جريانها، وعبر مجرى النهر حذرًا في كل خطوة. ثم سمع توماي أصواتًا من أعلى وأسفل المجرى تطغى على صوت تدفق الماء حول أرجل فيله، مزيدًا من صوت اضطراب المياه وبعضَ الصراخ من هنا وهناك، نخيرًا عاليًا وزفراتٍ غاضبة، وبدا الضباب حوله مليئًا بظلال تتحرك وتتراقص.

«آي! شعب الفيلة في الخارج الليلة» قال توماي الصغير بصوت مسموع وأسنانه تصطك، «إنها رقصة الفيلة إذًا!».

خرج كالاناغ من النهر ينثر المياه وينفخ خرطومه ثم بدأ تسلقًا جديدًا. لكنه لم يكن وحده هذه المرة، ولم يكن عليه أن يشق طريقًا بنفسه، كان الطريق جاهزًا من قبل ممتدًا أمامه بعرض ستة أقدام، حيث يحاول عشب الأدغال المثني أن يستعيد شكله وينتصب مجددًا. لا شك أن عددًا من الفيلة سلك ذلك الطريق قبل دقائق. نظر توماي الصغير خلفه فرأى فيلًا بريًا هائلًا ذا أنياب، ينتزع نفسه من مياه النهر الضبابي وعيناه الصغيرتان تبرقان. ثم اعترضتهم الأشجار مجددًا، فأكملوا طريقهم صعودًا، تحيط بهم أصوات الفيلة وتكسر الأغصان من كل جانب.

أخيرًا وقف كالاناغ بين جذعي شجرة على قمة التل، كانتا جزءًا من حلقة أشجار تحيط بمساحة غير منتظمة تبلغ حوالي ثلاثة أو أربعة فدانات. رأى توماي الصغير أن أرض الساحة قد مهدت حتى أصبحت قاسية مثل أرضية من قرميد، وانتصبت وسطها بضعة أشجار كشط لحاؤها وبدا الخشب الأبيض تحته لامعًا ومصقولًا في بقعٍ من ضوء القمر. من الأغصان العليا تدلت عرائش لها ورود كؤوسها ذات لون أبيض شمعي كاللبلاب نائمة نحو الأسفل. أما داخل الساحة، فلم يكن هناك أثر لورقة خضراء، لا شيء سوى الأرض الممهدة، وبدت الساحة رصاصية اللون في ضوء القمر إلا حيث وقفت الفيلة تلقي ظلالًا بلون أسود فاحم.

نظر توماي الصغير كاتمًا أنفاسه وعيناه مفتوحتان على وسعهما، ودخل أمام ناظريه المزيد والمزيد من الفيلة إلى الساحة من بين جذوع الأشجار. لم يكن يعرف العدّ إلا إلى العشرة، فعدّ عشرة بعد أخرى على أصابعه حتى نسي كم أحصى من العشرات، وبدأ يشعر بالدوار. سمع أصواتهم خارج الساحة يسحقون العشب وهم يشقون طريقهم صاعدين التل، لكن بمجرد دخولهم إلى حلقة الأشجار كانوا يتحركون فيها كالأشباح.

كان بينهم ذكور ذوي أنياب بيضاء، علقت في تجاعيد رقابهم وطيات آذانهم أوراق أشجار وجوز وأغصان؛ وإناث بطيئة الحركة بصحبة صغارها القلقين ذوي اللون الأسود المحمر، الذين لا يتجاوز طولهم ثلاثة أو أربعة أقدام ويمشون تحت بطون أمهاتهم؛

وفيلة فتية بدأت أنيابها تظهر للتو وتبدو فخورة بها؛ وفيلة طويلة نحيلة ضامرة مسنة، بوجوه خاوية قلقة وخراطيم مثل جذوع خشنة؛ وفيلة شرسة مليئة من أكتافها حتى خاصرتها بندوب وعلامات كدمات وجروح قتالات ماضية، والتراب المتيبس الباقي من حمامات الطين التي تقوم بها منعزلة، يتساقط عن أكتافها. أحدها كان مكسور الناب وعلى جانبه ندبات بليغة بسبب ضربة عاتية من مخالب نمر. عشرات وعشرات من الفيلة كانوا، يقفون رأسًا لرأس، أو يمشون اثنين اثنين جيئة وذهابًا عبر الساحة، أو يقفون ويتمايلون وحيدين. أدرك توماي أنه طالما جلس ساكنًا على رقبة كالاناغ لن يصيبه سوء، ففي جلبة حملات الخندق نفسها لا يمد فيل بري خرطومه لينزل رجلًا عن ظهر فيل مروض، وهذه الفيلة لم تكن تفكر بالبشر في تلك الليلة.

جفلوا فجأة وقربوا آذانهم إلى الأمام عندما سمعوا قرقعة قيد حديدي في الغابة، لكن تلك كانت بودميني، فيلة الخواجة بيترسن، تصعد المرتفع وهي تنخر وسلسلتها المقطوعة ترنّ من خلفها. لا بد أنها كسرت أعمدة السور وجاءت مباشرة من مخيم الخواجة. ورأى توماي الصغير فيلًا آخر لم يكن يعرفه، لديه أخاديد عميقة من آثار حبال على ظهره وصدره، لا بد أنه هو أيضًا هرب من مخيم ما في التلال القريبة.

أخيرًا لم يعد هناك صوت أي فيل يمشي في الغابة، فتحرك كالاناغ من مكانه بين الأشجار ومضى نحو وسط الحشد يقرقر ويغرغر، وبدأت كل الفيلة تتجول وتتكلم بلغتها.

ظل توماي الصغير مستلقيًا ينظر إلى جموع الأكتاف العريضة والآذان الملوحة والخراطيم المهتزة والعيون الصغيرة المتحركة. سمع طرق الأنياب حين تصطدم ببعضها خطأً، والحفيف الجاف للخراطيم الملتفة على بعضها، واحتكاك الأكتاف والخواصر الهائلة في الحشد، ونقر وهسيس الأذيال الكبيرة. ثم غطت القمرَ غيمةٌ تركت توماي في ظلام دامس، لكن أصوات القرقرة والتدافع والصخب المنتظمة الخفيضة ظلت مستمرة، وشعر بخرطوم يرتفع ويلمسه عند ركبته. كان يعرف أن الفيلة تحيط بكالاناغ وما من فرصة لحثه على التراجع والخروج من الجمع، فأطبق أسنانه وأخذ يرتجف. في الخندق يوجد ضوء المشاعل والصراخ على الأقل، لكنه هنا كان وحيدًا تمامًا في الظلام.

بدأ أحد الفيلة زميرًا، وأكمله الباقون لخمس أو عشر ثوانٍ فظيعة. تساقط الندى عن الأشجار كالمطر على الظهور غير المرئية. ثم دوى صوت كئيب، بدأ منخفضًا، حتى أن توماي الصغير لم يعرف ما هو، لكنه علا وعلا، ورفع كالاناغ أحد أقدامه ثم الثانية وأنزلهما على الأرض بالتتابع، واحد اثنان، واحد اثنان، بثباتٍ كالمطارق. عندئذٍ كانت الفيلة تدبك جميعًا في الوقت نفسه، وكان الصوت كطبل حرب يقرع على باب كهف. تساقط الندى عن الأشجار حتى لم يبق منه شيء يسقط، واستمر الدوي، واهتزت الأرض ومادت. وضع توماي الصغير كفيه على أذنيه ليحجب الصوت، لكن ارتجاجًا هائلًا كان يسري في جسده من ضرب مئات الأقدام الثقيلة على الأرض الترابية العارية.

شعر عدة مرات أن كالاناغ والآخرين اندفعوا إلى الأمام بضعة خطوات واسعة، وأن صوت الضرب تحول إلى صوت سحق نباتات غضة، لكن خلال دقيقة أو اثنتين عاد صوت الضرب على الأرض الصلبة مجددًا. مد يده ليتحسس جذع شجرة تئن وتصرّ في مكان ما قريب منه، لكن كالاناغ تابع مسيره وهو مستمر بضرب الأرض بقدميه، فلم يستطع أن يعرف موقعه من الساحة.

لم يصدر عن الفيلة أي صوت سوى حين صرخ فيلان صغيران أو ثلاثة معًا. ثم سمع صوت ارتطام تبعه صوت حركة، واستمر الدوي. لا بد أنه استمر ساعتين كاملتين، وتوماي الصغير يؤلمه كل عصب في جسده، لكنه عرف من رائحة هواء الليل أن الفجر قد اقترب.

انتشر الصبح كملاءة صفراء شاحبة خلف التلال الخضراء، وسكت الدوي مع الشعاع الأول، كأنما كان الضوء أمرًا. قبل أن يتلاشى الطنين من رأس توماي الصغير، وقبل أن يغير جلسته حتى، لم يبق هناك أي فيل سوى كالاناغ وبودميني والفيل ذو الأخاديد. ولم يكن هناك إشارة أو حركة أو همسة في التلال تدل على مكان ذهاب الآخرين. حدق توماي الصغير مرارًا. لقد كبرت الساحة في الليل حسبما يذكر، انتصبت مزيد من الأشجار في المنتصف، لكن تراجعت النباتات الأرضية والعشب على الأطراف. نظر مجددًا، الآن فهم صوت الضرب، لقد مهدت الفيلة مكانًا أكبر، سحقت العشب السميك والقصب الغض إلى حطام، والحطام إلى شظايا، والشظايا إلى ألياف دقيقة، والألياف إلى تربة صلبة.

«واه!» قال توماي الصغير، وعيناه ثقيلتان للغاية، «كالاناغ، سيدي، دعنا نرافق بودميني إلى مخيم الخواجة بيترسن وإلا سوف أسقط عن رقبتك». شاهدهما الفيل الثالث يبتعدان فنخر واستدار ذاهبًا في سبيله. ربما كان ينتمي إلى ملك هندي متواضع يسكن على بعد خمسين أو ستين أو مئة ميل.

بعد ساعتين، وبينما كان الخواجة بيترسن يتناول فطوره، بدأت فيله التي أحكم وثاقها في الليل بالصراخ، وبتثاقل دخلت بودميني إلى المخيم ممرغة بالوحل حتى كتفيها، وكالاناغ بصحبتها متورم القدمين.

كان وجه توماي الصغير رماديًا شاحبًا، وشعره مليئًا بالأوراق ومبللًا بالندى، لكنه حاول أن يلقي السلام على الخواجة بيترسن، وصاح بوهن: «الرقصة! رقصة الفيلة!، لقد رأيتها، وأنا.. أنا أموت!»، وبينما كان كالاناغ يجلس انزلق توماي عن رقبته فاقد الوعي.

ليس للأطفال المحليين من قوة الأعصاب شيء يذكر، لذا ظل توماي مستلقيًا ساعتين بسكينة في أرجوحة الخواجة بيترسن، تحت رأسه معطف الصيد، وفي معدته كأس حليب دافئ مع قليل من البراندي ونقط من الكينين. وبينما جلس أمامه صيادو الأدغال المسنون المشعرون المليئون بالندوب في صفوف ثلاثة ينظرون إليه كما لو أنه شبح، قصّ حكايته بجمل قصيرة كما يفعل الأطفال، وأنهاها قائلًا:

«إذًا، أرسل رجالًا لينظروا إن كذبت في كلمة واحدة، سوف يجدون أن الفيلة مهدت مكانًا إضافيًا في ساحة الرقص، وسوف يجدون عشرة وعشرة، وعشرات كثيرة من الطرقات تقودهم إلى تلك الساحة. لقد وسعوها بأقدامهم، رأيت ذلك، أخذني كالاناغ بصحبته ورأيت ذلك. لقد تعبت قدماه كثيرًا!».

استلقى توماي الصغير ونام حتى الغروب، وبينما هو نائم ذهب الخواجة بيترسن وماتشوا أبّا ليتعقبا أثر الفيلين مسافة خمسة عشر ميلًا عبر التلال. لقد أمضى الخواجة بيترسن ثمانية عشر عامًا في صيد الفيلة، لكنه لم يجد ساحة رقص مثل هذه إلا مرة واحدة من قبل. لم يلزم ماتشوا أبّا أن يعيد النظر إليها، أو أن يحك بإصبع قدمه التراب المهروس ليعرف ما حدث هناك، فقال: «الصبي يقول الحقيقة، كل هذا حدث الليلة الماضية، وقد عددت سبعين أثرًا تعبر النهر. انظر أيها الخواجة إلى أثر قيد بودميني الحديدي على لحاء تلك الشجرة! نعم، لقد كانت هنا أيضًا».

نظرا إلى بعضيهما وإلى ما حولهما مذهولين، فحياة الفيلة أكبر من قدرة أي إنسان على فهمها، أبيض كان أو أسود.

«لقد تبعتُ سيدي الفيل أربعين وخمسة أعوام، لكنني لم أسمع يومًا عن بشرٍ رأى ما رآه هذا الولد. بحق آلهة التلال، إن هذا.. ماذا عساني أقول؟» قال ماتشوا أبّا وهز رأسه.

حين عادا إلى المخيم كان وقت العشاء قد حان، تناول الخواجة بيترسن وجبته وحيدًا في خيمته، لكنه أعطى أوامر أن يحظى المخيم

بخروفين وبضع دجاجات وكمية مضاعفة من الطحين والرز والملح، فقد عرف أن وليمة سوف تقام الليلة.

أتى توماي الكبير من المخيم في السهول على عجلة يبحث عن ابنه وعن فيله، وحين وجدهما نظر كما لو أنه خائف من كليهما. وكانت هناك وليمة بجانب نار المخيم الملتهبة أمام صفوف الفيلة المقيدة. أما توماي الصغير فقد كان بطل المشهد، أخذ صيادو الفيلة البنية الكبيرة، والمتعقبون والسائقون ورابطو الحبال والرجال الذين يعرفون كل أسرار ترويض الفيلة البرية، يمررونه من واحد لآخر ويعلمون جبهته بدماء من صدر ديك بري ذبح للتو، ليظهروا أنه أصبح واحدًا منهم، من الصيادين قاطني الأدغال.

أخيرًا، عندما خفت اللهب، وجعل وهج قطع الحطب الأحمر الفيلةَ تبدو كأنها هي أيضًا غمست في الدم، وقف ماتشوا أبّا على قدميه؛ ماتشوا أبّا، النصف الآخر للخواجا بيترسن، الذي لم ير طريقًا معبدًا منذ أربعين عامًا، الذي كان من عظمته يعرف باسمه هذا وليس له سواه، وقف حاملًا توماي الصغير عاليًا في الهواء فوق رأسه، وصاح: «اسمعوا يا إخوتي، وأنتم أيضًا يا أسيادي في الصفوف هناك، أنا ماتشوا أبّا ولديّ ما أقوله لكم! لن يدعى هذا الصبي توماي الصغير بعد اليوم، بل توماي سائس الفيلة، كما كان جده الأكبر يدعى من قبله، لقد رأى خلال الليل الطويل ما لم يره أحد من قبل، لقد باركته الفيلة وآلهة الأدغال. سوف يصبح متعقبًا عظيمًا. سوف يصبح أعظم مني أنا، ماتشوا أبّا!، سوف يتبع الأثر

الحديث والقديم والمختلط بعين صافية! ولن يصيبه أذى في الخندق حين يركض تحت بطون الفيلة ليطوق ذات الأنياب منها بالحبال، وإن انزلق أمام قدمي فيلٍ سيعرف الفيل من هو ولن يسحقه. آيهاي! يا أسيادي في السلاسل»، ثم ركض نحو الفيلة وقال: «هذا هو الصغير الذي رأى رقصتكم في مخبئكم، الرقصة التي لم يرها بشر من قبل! باركوه يا أسيادي! سلام كارو يا أبنائي. ألقوا السلام على توماي سائس الفيلة! غونغابيرشاد! آهاا! هيراغوج! بيرتشي غوج! كوتار غوج! آهاا! بودميني، لقد رأيته في الرقصة، وأنت أيضًا يا كالاناغ، يا لؤلؤتي بين الفيلة! آهاا! معًا! أدوا السلام لتوماي سائس الفيلة، باروو!».

عند تلك الصيحة الجامحة الأخيرة رفعت كل الفيلة خراطيمها حتى لامست جباهها، وأطلقت معًا الصيحة المجلجلة التي لا يسمعها إلا نائب الملك في الهند، أدت تحية الخندق.

لكن، كل ذلك من أجل توماي الصغير الذي رأى ما لم يره بشرٌ من قبل؛ رقصةَ الفيلة في الليل، وحيدًا في قلب تلال غارو!

شيفا والجندب

الأغنية التي غنتها أم توماي الصغير لطفلها:

شيفا الذي أغدق المحاصيل وأجرى الرياح

جالس عند عتبة يوم منذ زمن طويل

يقدّر للكل نصيبهم من الطعام والكدح والمصير

من الملك على عرشه، إلى الشحاذ على الباب

لقد خلق شيفا الحامي كل شيء،

ماهاديو! ماهاديو! كل شيء من صنعه

خلق الشوك للجمل، والعلف للماشية

وقلب الأم ليغفو عليه طفلها الناعس

يا طفلي الصغير!

أعطى القمح للأغنياء وللفقراء الدخن

والفتات لأولئك المباركين الذين يشحذون من باب إلى باب

والمعركة للنمر، والجيَف للصقر

والبقايا والعظام للذئاب الشريرة التي تطوف في الليل
ما من أحد بنظره عظيم الشأن
وما من أحد بنظره صغير الشأن

بارفاتي إلى جانبه كانت تراهم حين يأتون ويذهبون
فكّرت أن تخون زوجها، وتحوله إلى أضحوكة
فسرقت جندباً صغيراً وخبّأته في صدرها
وهكذا خدعت شيفا الحامي
ماهاديو! ماهاديو! استدر وانظر!
الجمال طويلة والماشية ثقيلة،
ولكن هذا أضأل مخلوق من بين المخلوقات الصغيرة!
عندما انتهى توزيع الأرزاق، قالت ضاحكة
هل إنّ سيد مليون فم، ترك واحداً لم يطعمه؟
أجاب شيفا ضاحكاً: كل واحد أخذ نصيبه
حتى ذلك الذي خبأتِه تحت قلبك
فانتزعت بارفاتي اللصةُ الجندبَ من صدرها
ورأت أضأل المخلوقات يقضم ورقة صغيرة غضة!
رأت وارتعبت واحتارت وصلّت إلى شيفا
الذي منح الزاد لكل مخلوق

لقد خلق شيفا الحامي كل شيء،
ماهاديو! ماهاديو! كل شيء من صنعه
خلق الشوك للجمل، والعلف للماشية
وقلب الأم ليغفو عليه طفلها الناعس
يا طفلي الصغير!

الفصل السابع
حكاية خدم صاحبة الجلالة

بإمكانك حلّها بالكسور أو ضرب التبادل
لكن طريقة تويدل دم غير طريقة تويدل دي(*)
بإمكانك لفّه أو تدويره أو ضفره حتى تنال التعب
لكن طريقة بيلي وينكي غير طريقة وينكي بوب

كانت الأمطار تهطل بغزارة منذ شهر كاملٍ على معسكرٍ يضم ثلاثين ألف رجل وآلاف من الجمال والفيلة والخيول والثيران والبغال، جُمعوا في مكان يدعى روال بندي من أجل إقامة استعراض عسكري أمام نائب الملك في الهند. في ذلك الوقت كان يتلقى زيارة من حاكم أفغانستان، وهو ملك غريب من بلاد غريبة، أحضر معه لحراسته حاشية من ثمانمئة رجل وحصان لم يروا في حياتهم معسكرًا أو قطارًا، كانوا رجالًا همجيين وخيولًا همجية من مكان ما جنوب

(*) أسماء ابتكرها جون بايرون للسخرية من مدرستين موسيقيتين متنازعتين، والفرق بينهما لم يكن شيئًا يذكر.

آسيا الوسطى. كل ليلة كان عدد من تلك الخيول يقطع حبال أرجله ويجتاح أرجاء المعسكر في الوحل والظلام، أو تفر الجمال وتركض هنا وهناك وتتعثر بحبال الخيام، ويمكنك أن تتخيل كم كان ذلك مبهجًا للرجال الذين يحاولون أن يخلدوا إلى النوم.

خيمتي كانت بعيدة عن سرية الجمال، وكنت أظنها بأمان، إلى أن أتت تلك الليلة حين أدخل رجل رأسه إليها وصرخ: «اخرج بسرعة! إنهم قادمون! لقد اختفت خيمتي!». كنت أعرف من «هم»، لذا لبست حذائي ومعطفي المطري وهرولت خارجًا أخوض في الماء الطيني، وخرجت كلبتي الصغيرة فيكسن من الطرف الآخر، ثم سمعتُ زمجرة ونخيرًا ورغاءً، ورأيت الخيمة تتهاوى وعمودَها ينكسر، وبدأتْ ترقص وتجول كشبح مجنون. لقد اكتسحها جمل أثناء تخبطه، ورغم أنني كنت مبللًا وغاضبًا فقد غلبني الضحك.

تابعت مسيري لأنني لم أعرف كم جملًا قد هرب، وأصبحت خلال وقت قصير بمنأىً عن المعسكر أشق طريقي في الطين حتى تعثرتُ بذيل مدفع، فعرفت أنني في مكان قريب من خطوط سلاح المدفعية حيث تصطف المدافع في الليل. ولأنني لم أرد المزيد من الركض والتعثر في المطر والظلام، وضعت معطفي المطري على فوهة أحد المدافع، وصنعت ما يشبه الخيمة بمدكتين أو ثلاثًا وجدتها جانبًا، واستلقيت على ذيل مدفع آخر، أتساءل أين ذهبت فيكسن، وأين قد أكون.

بينما كنت أجهز نفسي للنوم سمعت صوت أحزمة ونخيرًا، ومر من جانبي بغل يهز أذنيه المبللتين. كان ينتمي إلى كتيبة المدافع الجبلية، عرفت ذلك من جلجلة الأحزمة والحلقات والسلاسل والأمتعة على سرجه. والمدافع الجبلية هي مدافع صغيرة مكونة من قسمين، يتم تركيبهما معًا عندما يحين وقت استخدامها. تنقل إلى أي مكان في أعلى الجبال يمكن أن يجد البغل إليه طريقًا، وهي نافعة في القتال في البلدان الوعرة.

من خلف البغل أتى جمل، قدماه الكبيرتان الطريتان تخوضان وتنزلقان في الوحل، ورقبته تهتز إلى الأمام والخلف كرقبة دجاجة شاردة. لحسن الحظ قد تعلمتُ من لغة الحيوانات، ليس البرية منها وإنما حيوانات المعسكر، من أهل المنطقة ما يكفي لفهم ما يقول. لا بد أنه الجمل الذي اخترق خيمتي، لأنه قال مخاطبًا البغل: «ماذا عليّ أن أفعل، وأين ينبغي أن أذهب؟ لقد قاتلتُ شيئًا أبيض متموجًا، فأخذ عصًا وضربني بها على رقبتي»، كان يقصد عمود خيمتي المكسور، وفرحت لتلقيه تلك الضربة، «هل علينا أن نتابع المسير؟».

«آه، إنه أنت إذًا» قال البغل، «كنت أنت ورفاقك من يسبب إزعاجًا للمعسكر؟ حسنٌ، سوف تنال عقابك على ذلك في الصباح، لكنني سأعطيك بعضًا مما تستحق مقدمًا».

وسمعت جلجلة أحزمة البغل إذ تراجع ووجه للجمل ضربتين على أضلاعه رنتا كالطبل.

«في المرة القادمة ستتعلم ألا تركض في كتيبة البغال في الليل وأنت تصرخ «لصوص وحريق!»، اجلس وأبق رقبتك السخيفة ساكنة».

طبّق الجمل جسده كمسطرة قابلة للطيّ وجلس متذمرًا، بينما تناهى في الظلام صوت ضرب حوافر منتظم، وظهر حصان مجند ضخم يهرول بثبات كما لو أنه في استعراض عسكري، ثم قفز فوق ذيل مدفع ليتوقف قريبًا من البغل، وقال: «إنه لشيء مخزٍ» ونفخ منخريه، «أولئك الجمال أحدثوا جلبة في سريتنا مجددًا، للمرة الثالثة هذا الأسبوع. كيف يفترض بالحصان أن يحافظ على نشاطه إن لم يسمح له بالنوم. من هنا؟».

«أنا البغل حامل بطن المدفع رقم ٢ من كتيبة المدافع الجبلية الأولى، والآخر واحد من أصدقائك، لقد أيقظني أيضًا. من تكون؟».

«رقم ١٥ من سرية ج، كتيبة الرماحين التاسعة، حصان ديك كنليف، اقترب قليلًا».

«آه، لا تؤاخذني، الظلمة لا تسمح برؤية الكثير» قال البغل، «أليس هؤلاء الجمال كريهين؟ لقد غادرتُ السرية للحصول على قسط من الهدوء والسكينة».

«أيها السادة» قال الجمل محرجًا، «لقد راودتنا كوابيس في الليل، وتملكنا الخوف. أنا مجرد جمل يحمل متاع كتيبة المشاة المحلية التاسعة والثلاثين، ولستُ شجاعًا مثلكم يا سادتي».

«ولمَ لم تبقَ هناك وتحمل متاع الكتيبة التاسعة والثلاثين عوضًا عن الركض في أرجاء المعسكر؟» قال البغل.

«لقد كانت كوابيس رهيبة، أنا آسف» قال الجمل، «اسمع! ما هذا الصوت؟ هل علينا أن نهرب مجددًا؟».

«اجلس وإلا ستنكسر سيقانك الأشبه بالعصي بين المدافع»، قال البغل، ثم أمال إحدى أذنيه مصغيًا وتابع: «ثيران! ثيران المدفعية. بالفعل، أنت وأصدقاؤك أتقنتم إيقاظ المعسكر كله، فثيران المدفعية يلزمها عادةً كثير من النخز لتفيق».

سمعت سلسلة تجر على الأرض، وأتى ثوران أبيضان أغبران مقرونان بنير، من الثيران التي تجر مدافع الحصار الثقيلة إلى حيث لا تجرؤ الفيلة على الاقتراب أكثر من النيران. تقدما معًا كتفًا لكتف، وأتى من خلفهما بغل آخر من كتيبة المدفعية يكاد يدوس سلسلتهما، وينادي بصوت عالٍ «بيلي».

«هذا واحد من مجندينا» قال البغل المسنّ للحصان، «إنه يناديني. هيه، أيها الغرّ، توقف عن الصياح، لم يمت أحد يومًا من المشي في الظلام».

رقد الثوران معًا وأخذا يجتران الطعام ويلوكانه. واقترب البغل الصغير من بيلي قائلًا: «أشياء مخيفة مروعة تحدث يا بيلي! لقد اجتاحوا سريتنا ونحن نائمون. هل تظن أنهم سيقتلوننا؟».

«لدي رغبة ملحة الآن بتلقينك ضربًا مبرحًا» قال بيلي، «كيف يأتي بغل طوله متر ونصف وبمثل تدريبك ويخزي الكتيبة أمام هذا السيد!».

«هون عليك!» قال الحصان، «تذكر أن ذلك يحدث دائمًا في

البداية. عندما رأيت رجلًا للمرة الأولى، وكان ذلك في أستراليا وأنا ابن ثلاث سنوات، ظللت أركض نصف نهار، ولو رأيت جملًا لظللت أركض حتى الآن».

أغلب خيول الفرسان الإنكليز تجلب إلى الهند من أستراليا، ويتم ترويضها من قبل الفرسان أنفسهم.

«صحيح، توقف عن الارتجاف أيها الغر» قال بيلي، «عندما وضعوا العتاد بكل سلاسله على ظهري أول مرة وقفت على قدمي الأماميتين ورفست كل قطعة منه عني. لم أكن قد تعلمت الفن الحقيقي للرفس بعد، لكن كل من في الكتيبة قال إنه لم ير شيئًا مثله من قبل».

«لكن ذلك لم يكن عتادًا أو أي شيء يصلصل»، قال البغل الصغير، «تعرف أنني لا أمانع ذلك الآن يا بيلي، لكنها كانت أشياء كالأشجار، وكانت تقع في كل مكان في السرية وتصدر أصواتًا كالبقبقة، وانقطع الحبل عن رأسي، ولم أستطع أن أجد سائقي، ولم أستطع أن أجدك يا بيلي، لذلك هربت مع.. مع هؤلاء السادة».

«همم! لقد أتيت إلى هنا بنفسي بمجرد أن سمعت بهروب الجمال» قال بيلي، «عندما يدعو بغلٌ مجندٌ في كتيبة المدافع الجبلية الثيرانَ سادة، هذا يعني أنه مصدوم بشدة. من أنتم أيها الرفاق هناك على الأرض؟».

لاك الثوران الطعام المجتر وأجابا معًا: «الزوج السابع للمدفع الأول من كتيبة المدافع الكبيرة. كنا نائمين حين أتى الجمال، لكننا

استيقظنا عندما سُحقنا تحت الأقدام فغادرنا. من الأفضل أن ننام بهدوء على الطين من أن نتعرض للإزعاج على فراش وثير. لقد أخبرْنا صديقك هذا أنه لا داعي للخوف، لكن يبدو أنه يعرف الكثير فخالفنا الرأي، نياه!» وتابعا المضغ.

«هذا ما تكسبه من الخوف، سخرية ثيران المدفعية» قال بيلي، «أرجو أنها أعجبتك أيها الغِر».

أطبق البغل الصغير فكيه بقوة، وسمعته يقول إنه ليس خائفًا من أي ثور عجوز سمين في العالم، فاكتفى الثوران بطرق قرنيهما معًا وتابعا المضغ.

«لا تغضب الآن بعد أن كنتَ خائفًا، هذا أسوأ أنواع الجبن» قال الحصان، «أعتقد أنه يمكن معذرة أي أحد لخوفه في الليل إذا رأى أشياء لا يفهمها. لقد هربنا من حظائرنا مرارًا، وكنا أربعمئة وخمسين حصانًا، لمجرد أن مجندًا جديدًا بدأ يحكي حكايات عن الأفاعي في وطننا أستراليا، حتى بدأنا نذعر من الحبال السائبة من ألجمتنا».

«كل هذا ممكن في المعسكر» قال بيلي، «لستُ منزهًا عن الهرب أيضًا، أحيانًا أهرب على سبيل المتعة إذا لم أخرج ليوم أو اثنين. لكن ماذا تفعل في أوقات الخدمة الرسمية؟».

«تلك حكاية مختلفة تمامًا» قال الحصان، «عندها يكون ديك كنليف على ظهري ويلكزني بركبتيه، وكل ما علي فعله هو أن أراقب موطئ قدمي وأبقي رجلي الخلفيتين تحتي، وأن أكون كيّسًا».

«وما معنى أن تكون كيّسًا؟» قال البغل الصغير

«بحق أشجار أستراليا وبراريها!» زفر الحصان، «هل تعني أنك لم تتعلم الكياسة في عملك؟ كيف تفعل أي شيء إن لم تستطع الانعطاف مباشرة حين يضغط اللجام على رقبتك؟ إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لسيدك، وبالتالي مسألة حياة أو موت بالنسبة لك. في اللحظة التي تشعر باللجام يشتد على رقبتك تنعطف مباشرة وتبقي رجليك الخلفيتين تحتك. وإن لم يكن هناك متسع للانعطاف عليك أن تشبّ قليلًا وتستدير مستندًا على رجليك الخلفيتين. هكذا تكون كيّسًا».

«لم نتعلم تلك الطريقة» قال البغل بيلي بتكبر، «تعلمنا أن نطيع الرجل الذي يقف عند رأسنا: امشِ حين يأمرك وتوقف حين يأمرك. أعتقد أن النتيجة واحدة. إذًا ماذا تفعل إلى جانب عملك الراقي هذا والارتفاع على رجليك الخلفيتين الذي لا بد أن يؤذي عرقوبيك؟».

«يختلف الأمر حسب الظروف» قال الحصان، «عادة عليّ أن أشتبك مع رجال كثيرين غزيري الشعر، يصرخون حاملين سكاكين طويلة ولامعة، أسوأ من سكاكين صانعي الحدوات. وعليّ أن أحرص على أن قدم ديك بالكاد تلامس قدم الرجل بجانبنا دون أن تضغط عليها. أستطيع أن أرى حربة ديك علي يمين عيني اليمنى فأعرف أنني بأمان. وآسَفُ لحال أي رجل أو حصان يعترض طريقنا أنا وديك عندما نكون مستعجلين».

«ألا تسبب السكاكين الأذى؟» قال البغل الصغير

«لقد أصابتني سكين مرة بجرح في صدري، لكن لم يكن ذنب ديك..».

«وماذا يهم ذنب من إن كانت تجرح!» قال البغل الصغير.

«بل يهم» قال الحصان، «إذا كنت لا تثق بسيدك عليك أن تهرب على الفور. هذا ما يفعله بعضنا، ولا ألومهم. كما قلت، لم يكن ذنب ديك، فالرجل كان مستلقيًا على الأرض، وعندما رفعت نفسي لئلا أدوسه لوح بسكينه وجرحني. في المرة القادمة حين أمر من فوق رجل مستلقٍ عليّ أن أدوسه.. وبقوة!».

«همم، يبدو لي ذلك حماقة، فالسكاكين أشياء وسخة دائمًا» قال بيلي، «أما العمل الأفضل هو أن تتسلق جبلًا بسرج متوازن، أن تتشبث بأرجلك الأربعة وآذانك أيضًا، وتزحف ببطء وتنعطف في طريق متعرج حتى تصل إلى حافة صخرية على علو مئات الأقدام فوق كل شيء حيث لا متسع إلا لحوافرك. ثم تقف بهدوء، لا تطلب أبدًا من رجل أن يمسك رأسك أيها الغر، ابق هادئًا بينما يتم تركيب الأسلحة، ثم ستشاهد القذائف الصغيرة تنهمر بين رؤوس الأشجار بعيدًا في الأسفل».

«ألا تتعثر أبدًا؟» قال الحصان.

«لا يا عزيزي، يقولون أن البغل يتعثر إذا نبت للدجاج آذان» قال بيلي، «قد يفقد بغل توازنه بسبب سرج حُزم بشكل سيئ، لكن

ذلك نادر جدًا. أتمنى لو أستطيع أن أريك عملنا. إنه جميل. أي نعم، لقد قضيت ثلاث سنوات لأكتشف ما يحاول الرجال فعله. السر في الأمر هو ألا تظهر في الأفق أبدًا، لأنك إن فعلت قد تتعرض لإطلاق نار. تذكر ذلك أيها الغر. دائمًا ابق مختبئًا بقدر الإمكان، حتى لو اضطررت أن تنحرف ميلًا عن طريقك، أنا أقود الكتيبة في ذاك النوع من التسلق».

«أن أتعرض لإطلاق نار دون فرصة للهجوم على من يطلقون النار!» قال الحصان وأطرق مفكرًا، «لا أستطيع تحمل ذلك، سأرغب بالهجوم بالتأكيد، مع ديك».

«آه، لا لن ترغب. ما إن تنصب المدافع تعرف أنها ستقوم بالهجوم، ذلك شيء منطقي ونظيف. أما السكاكين.. باه!».

كان جمل المتاع يهز رقبته إلى الأمام والخلف منذ بعض الوقت، متلهفًا للمشاركة بتعليق جانبي، ثم سمعته يقول بتوتر بعد أن تنحنح: «لقد.. لقد قاتلتُ قليلًا، لكن ليس بطريقة هذا الركض أو ذاك التسلق».

«صحيح، بالمناسبة» قال بيلي، «لا يبدو أنك خلقت للتسلق أو الركض.. إذًا، كيف قاتلت يا كومَ التبن العجوز؟».

«بالطريقة الصحيحة» قال الجمل، «لقد جلسنا جميعًا و..».

«بحق درعي وأحزمتي!» قال الحصان هامسًا، «جلسوا إذًا!».

«جلسنا مشكلين مربعًا كبيرًا» تابع الجمل، «كنا مئة جمل، كوم

الرجال أسرجتنا والأمتعة خارج المربع، وأطلقوا النار من فوق ظهورنا، أطلق أولئك الرجال النار، من كل أطراف المربع».

«أي نوع من الرجال؟ أي رجل يصادف أن يأتي؟» قال الحصان، «في مدرسة الفروسية يعلموننا أن نرقد ونترك أصحابنا يطلقون النار من فوقنا، لكن ديك كنليف هو الرجل الوحيد الذي أثق به لفعل ذلك. إنه يدغدغ حزام سرجي، وإضافة إلى ذلك، لا أستطيع أن أرى ورأسي على الأرض».

«فيمَ يهمك من يطلق النار من فوقك؟» قال الجمل، «فهناك الكثير من الرجال ومن الجمال بالقرب، وغمامات كبيرة من الدخان. لا أخاف عندها، أجلس ساكنًا وأنتظر».

«ومع ذلك أنت ترى كوابيس وتزعج المخيم في الليل» قال بيلي، «لا يا عزيزي! قبل أن أنحني، ولن أقول أستلقي، وأترك رجلًا يطلق النار من فوقي، سيكون لحوافري حديث خاص مع رأسه. هل سمعتم بشيء أشنع من هذا؟».

خيّم صمت طويل، ثم رفع أحد الثورين رأسه وقال: «كل هذا حماقة بالفعل، ليس هناك سوى طريقة واحدة للقتال».

«آه، تابع من فضلك» قال بيلي، «لا تؤاخذني، أتصور أنكم تقاتلون وقوفًا على ذيولكم؟».

«طريقة واحدة فقط، وهي كالتالي» قال كلاهما، لا بد أنهما توءمان، «أن يُربط عشرون زوجًا منا بالمدفع الكبير بمجرد أن يصيح أبو ذيلين»، أبو ذيلين هو لقب الفيل في المعسكر.

«ولماذا يصيح أبو ذيلين؟» قال البغل الصغير.

«ليعلن أنه لن يقترب أكثر من الدخان على الطرف الآخر. أبو ذيلين جبان كبير. عندئذٍ نسحب المدفع الضخم معًا، هيا هولا! هيا هولا! لا نتسلق كالقطط أو نركض كالأبقار، بل نمشي عبر التل، عشرون زوجًا منا، إلى أن يتم فصل نيرنا مجددًا، فنرعى العشب بينما تتحدث المدافع الضخمة عبر التل إلى إحدى القرى ذات الأسوار الطينية، فتقع أجزاء من السور، ويرتفع الغبار وكأن قطيعًا من الأبقار يعود إلى زريبته».

«آه، وترعون في وقت كهذا؟» قال البغل الصغير.

«ذلك الوقت أو غيره، الأكل جيد دائمًا. نظل نأكل حتى يوضع نيرنا مجددًا فنسحب السلاح إلى حيث ينتظره أبو ذيلين. أحيانًا يكون هناك مدافع في القرية ترد على مدافعنا، فيقتل بعضنا، ويظل لمن بقي منا كثير من الرعي بانتظاره. إنه القدر. على أية حال، أبو ذيلين جبان كبير. وهذه هي الطريقة الصحيحة للقتال. نحن إخوة من هابور. والدنا كان أحد ثيران شيفا المقدسة. لقد قلنا ما لدينا».

«حسنٌ، لقد تعلمت شيئًا جديدًا الليلة بلا شك» قال الحصان، «وهل أنتم أيها السادة من كتيبة المدافع الجبلية تميلون للأكل حين تطلق المدافع عليكم؟، النار من أمامكم وأبو ذيلين من خلفكم؟».

«بقدر ما نحب أن نرقد وندع رجلًا ينبطح فوقنا، أو نشتبك مع رجال يحملون السكاكين. لم أسمع في حياتي أشياء مماثلة. أعطني طريقًا جبليًا، حملًا متوازنًا، سائقًا تثق أنه سيتركك تختار طريقك

بنفسك، عندها أكون في خدمتك. لكن تلك الأعمال الأخرى.. لا يمكن!» قال بيلي، مع ضربة بقدمه.

«بالطبع» قال الحصان، «لم يخلق الجميع متماثلين، وأرى بوضوح أن عائلتك، من طرف أبيك، تعجز عن فهم الكثير الكثير من الأمور».

«لا شأن لك بعائلتي من طرف أبي» قال بيلي غاضبًا، فكلّ بغل يكره أن يذكره أحد أن أباه كان حمارًا، «أبي كان سيدًا محترمًا من الجنوب، وكان قادرًا على أن يوقع ويعض ويمزق إربًا أي حصان يصادفه. تذكر ذلك أيها البرمبي البني الكبير!»، وكلمة برمبي تعني حصانًا بريًا يفتقر لأية تربية. تخيل شعور فرس سباق إن وصفها أحد خيول العربات بالمزلجة، ستعرف عندها كيف شعر الحصان الأسترالي. لقد رأيت بياض عينه يلمع في الظلام.

«انظر إليّ، يا ابن الحمار المستورد من مالاغا» قال قابضًا أسنانه، «ليكن بعلمك أنني من طرف أمي قريب لـ «كاربين»، الفائز بكأس ملبورن. وفي المكان الذي أتيت منه لسنا معتادين على تلقي الإهانات من بغل ثرثار عنيد من كتيبة دمى بنادق الفاصولياء. هل أنت مستعد؟».

«على رجليك الخلفيتين!» صرخ بيلي. وارتفع الاثنان يواجهان بعضهما، وتوقعتُ قتالًا طاحنًا، لكن صوتًا هادرًا مقرقرًا نادى من قلب الظلام على يميني: «يا أولاد، ما الذي تتقاتلون من أجله هناك؟ اهدؤوا».

نزل الاثنان على الأرض بزفرة اشمئزاز، فلا الحصان ولا البغل يحتمل سماع صوت الفيل.

«إنه أبو ذيلين!» قال الحصان، «لا أستطيع تحمله. ليس لطيفًا أن يكون له ذيل في كل طرف».

«هذا بالضبط ما أشعر به» قال بيلي، واقترب من الحصان للمساندة، «نحن متشابهان في بعض الأمور».

«أظن أننا ورثناها من أمهاتنا، الأمر لا يستحق الشجار» قال الحصان، «أهلاً يا أبا ذيلين!، هل أنت مقيد؟».

«نعم، أنا مقيد هذه الليلة» قال أبو ذيلين، وضحك ملء خرطومه، «لقد سمعت حديثكم يا رفاق، لكن لا تخافوا، لن آتي إليكم».

فقال الثوران والجمل بصوت منخفض: «وكأننا سنخاف من أبي ذيلين، يا له من هراء!»، وتابع الثوران: «نأسف لأنك سمعت، لكن ذلك صحيح. لمَ تخاف من المدافع حين تطلق القذائف يا أبا ذيلين؟».

«حسنٌ» قال أبو ذيلين، وهو يحك أحد رجليه الخلفيتين بالأخرى كصبيّ يلقي قصيدة: «لست واثقًا تمامًا من أنكم ستفهمون».

«لن نفهمك، لكننا مجبرون على جر المدافع» قال الثوران.

«أعرف، وأعرف أنكم أشجع بكثير مما تظنون. لكن الأمر مختلف بالنسبة إلي. قبل أيام وصفني قائد كتيبتي بالطفرة المتقرنة».

«هذه طريقة جديدة في القتال على ما أعتقد؟» قال بيلي محاولًا استعادة مزاجه.

«لا، أنت لا تعرف ما معنى ذلك بالطبع، لكنني أعرف، تعني أنني مذبذب، جسدي في مكان وعقلي في آخر، بالنتيجة لست هنا ولست هناك. أستطيع أن أرى في رأسي ما سيحصل عندما تنفجر القذيفة، لكنكم معشر الثيران تعجزون عن ذلك».

«أنا أستطيع» قال الحصان، «قليلًا فقط، وأحاول ألا أفكر بذلك».

«أستطيع أن أرى أكثر مما ترى، وأفكر به بالفعل. أعرف أنني أتطلب الكثير من الرعاية، وأن لا أحد يعرف كيف يعالجني حين أمرض. كل ما يستطيعون فعله أن يوقفوا راتب سائقي إلى أن أشفى، وأنا لا أثق به».

«آه! هذا يفسر كل شيء» قال الحصان، «أنا أثق بـ ديك».

«يمكنك أن تضع فوجًا من هذا الـ ديك على ظهري دون أن يشعرني ذلك بأدنى تحسن. أعرف أشياء تجعلني مضطربًا، لكنها لا تكفي لأستطيع المضي رغمًا عنها».

«نحن لا نفهمك» قال الثوران.

«أعرف أنكما لا تفهمان. لست أكلمكما، فأنتما لا تعرفان ما هو الدم».

«بل نعرف» قال الثوران، «إنه شيء أحمر يسيل على الأرض وله رائحة».

ركل الحصان وقفز ونخر، ثم قال: «لا تتحدثوا عنه، أستطيع أن أشمه الآن بمجرد التفكير به. إنه يجعلني أرغب بالهرب، وديك ليس على ظهري».

«لكن لا دماء هنا» قال الجمل والثوران، «لم أنت بهذا الغباء؟».

«الدم شيء قذر» قال بيلي، «لا أريد أن أهرب لكنني لا أرغب بالحديث عنه أيضًا».

«ها أنتما ذا!» قال أبو ذيلين ملوحًا بذيله للموافقة.

«بالطبع، نعم، نحن هنا طوال الليل» قال الثوران.

ضرب أبو ذيلين الأرض برجله حتى رنت الحلقة الحديدية التي تطوقها، «أوه، لست أكلمكما، أنتما لا تستطيعان رؤية الأشياء داخل رأسيكما».

«لا، نحن نرى بأعيننا الأربعة ما هو أمامنا مباشرة» قال الثوران.

«لو أمكنني أن أفعل ذلك ولا شيء غيره لما اضطررتما لجر المدافع على الإطلاق. لو كنت مثل قائدي، فهو يستطيع أن يرى الأشياء في رأسه قبل أن يبدأ إطلاق النار، ويرتجف جسده، لكنه يعرف ما يجعله لا يهرب، لو كنت مثله لاستطعت جر المدافع، ولو أنني حكيم كفاية لما كنت هنا في الأساس، يجب أن أظل ملكًا في الغابة كما كنت، أنام نصف النهار وأستحم عندما أريد. لم أحصل على حمام جيد منذ شهر».

«هذا كله مفهوم» قال بيلي، «لكن إطلاق اسم معقد على شيء ما لا يجعل الأمر أفضل».

«شش!» قال الحصان، «أظنني أعرف ما يعنيه أبو ذيلين».

«سوف تفهم بشكل أفضل خلال دقيقة» قال أبو ذيلين بغضب، «لكن الآن اشرح لي فقط لم لا يعجبك هذا الصوت!»، وبدأ يصيح ملء خرطومه.

«توقف عن ذلك!» قال بيلي والحصان معًا، وسمعتهما يضربان الأرض ويرتعشان. فصياح الفيل بغيض دومًا، خاصة في ليلة مظلمة.

«لن أتوقف!» قال أبو ذيلين، «ألن تشرح ذلك من فضلك؟ هممررر! رررااا!» ثم توقف فجأة، وسمعت همهمة خافتة في الظلام، فأدركت أن فيكسن وجدتني أخيرًا. كانت تعرف مثلي تمامًا أن أكثر ما يخيف الفيلة هو كلب صغير ينبح. لذا توقفتْ عند أبي ذيلين لتزعجه وراء سوره، ونبحتْ بقرب أقدامه الكبيرة. تململ أبو ذيلين وزعق: «ابتعدي أيتها الكلبة الصغيرة، لا تتشممي كواحلي وإلا سوف أركلك! هيا أيتها الكلبة الجيدة، أيتها الكلبة اللطيفة، اذهبي! أيتها المتوحشة النباحة الصغيرة! آه، لم لا يأخذها أحدكم بعيدًا؟ تكاد تعضني».

«يبدو لي.. أن صاحبنا أبا ذيلين يخاف من معظم الأشياء» قال بيلي للحصان، «صدقني، لو أعطوني وجبة كاملة عن كل كلب طردته من ساحة الاستعراض العسكري، لأصبح حجمي ضعف حجم أبي ذيلين».

صفرتُ لفيكسن فركضت نحوي مغطاة بالوحل، لعقت أنفي وأخبرتني حكاية طويلة عن بحثها عني في المخيم. لم أجعلها تعرف يومًا أنني أفهم كلام الحيوانات، وإلا لتمادت في كثير من الأمور. ضممتها إلى صدر معطفي وأغلقت الزر. كان أبو ذيلين يتحرك ويضرب الأرض ويدمدم لنفسه، ثم قال: «عجيب! غريب! هذه صفة متوارثة في عائلتنا. والآن أين ذهب ذلك الوحش الصغير المقرف؟»، وسمعته يتحسس حوله بخرطومه، ثم أكمل: «يبدو أن كلًا منا يتأثر بطريقة مختلفة، مثلًا، أظنكم فزعتم أيها السادة بسبب صرختي».

«لم نفزع، ليس تمامًا» قال الحصان، «لكن صرختك جعلتني أشعر كأن هناك دبابير بدل السرج على ظهري. لا تفعله مرة أخرى».

«أنا خائف من كلب صغير، وهذا الجمل يخاف من الكوابيس في الليل».

«من حسن حظنا أننا لسنا مجبرين على القتال بالطريقة نفسها» قال الحصان.

«ما أود معرفته..» قال البغل المجند الذي ظل صامتًا لوقت طويل، «ما أود معرفته هو، لم علينا أن نقاتل أصلًا».

«هذا لأننا نؤمر بذلك» قال الحصان، بزفرة مقت.

«الأوامر» قال البغل بيلي، وأطبق فكيه.

«حكم هيه! (إنه أمر!)» قال الجمل بقرقرة، وكرر أبو ذيلين والثوران: «حكم هيه!».

«صحيح، لكن من الذي يعطي الأوامر؟» قال البغل المجند.

«الرجل الذي يمشي بقرب رأسك»، «أو يجلس على ظهرك»، «أو يمسك حبل أنفك»، «أو يثني ذيلك» قال بيلي والحصان والجمل والثوران على التوالي.

«لكن من الذي يعطيهم الأوامر؟».

«أنت ترغب بمعرفة الكثير أيها الغرّ، وهذه إحدى طرق تلقي الركلات» قال بيلي، «كل ما عليك فعله هو أن تطيع الرجل الواقف قرب رأسك وألا تسأل أية أسئلة».

«إنه محق» قال أبو ذيلين، «أنا لا أستطيع أن أطيع دومًا، فانا مذبذب. لكن بيلي على حق. أطع أوامر الرجل الذي يقف بجانبك، وإلا ستوقف الكتيبة كاملة وتتعرض للجلد».

نهض الثوران ليغادرا وقالا: «اقترب الصباح، سوف نعود إلى الكتيبة. صحيح أننا نرى الذي أمام أعيننا فقط، وأننا لسنا أذكياء كثيرًا، لكننا الوحيدان الذان لم يشعرا بالخوف هذه الليلة. تصبحون على خير أيها الشجعان».

لم يجب أحد، وقال الحصان ليغير الحديث: «أين الكلبة الصغيرة؟ وجود كلب يعني وجود رجل في مكان ما قريب».

«أنا هنا» نبحت فيكسن، «أجلس على ذيل المدفع مع سيدي. يا لك من وحش كبير أخرق أيها الجمل، لقد هدمت خيمتنا. وسيدي غاضب جدًا».

«فيوو!» قال الثوران، «لا بد أنه رجل أبيض!».

«بالطبع هو كذلك» قالت فيكسن، «وهل تظنان أنه يتم الاعتناء بي من قبل سائق ثيران أسود؟».

«واه! أوتش! أوه! لنبتعد من هنا سريعًا» قال الثوران، ثم اندفعا إلى الأمام في الطين، وبطريقة ما جعلا نيرهما يدخل بعمود عربة ذخيرة، فعلق هناك.

«ماذا فعلتما» قال بيلي بهدوء، «لا تصارعا، أنتما عالقان حتى الصباح، ما الذي دهاكما بالضبط؟».

أخذ الثوران يصدران نخرات هامسة طويلة كما تفعل المواشي الهندية، دفعا والتصقا واستدارا وضربا الأرض بحوافرهما، وانزلقا وكادا يسقطان في الوحل وهما يخوران بوحشية.

«تكادان تكسران رقبتيكما» قال الحصان، «ما مشكلة الرجال البيض؟ أنا أعيش معهم».

«إنهم! يأ..كلوننا!، اسحب!» قال أحدهما، وانقصم القيد بصوت حاد فابتعدا متثاقلين معًا.

لم أكن أعرف من قبل ما يجعل المواشي الهندية تخاف الإنكليز إلى هذا الحد. لكننا نأكل لحم البقر الذي لا يقربه السائقون، وذلك لا يعجب الماشية بالطبع.

«فليجلدوني بأحزمة سرجي! من كان يظن أن تفقد كتلتان ضخمتان مثلهما عقليهما؟» قال بيلي.

«لا يهم، سأذهب لألقي نظرة على ذلك الرجل، معظم الرجال البيض يحملون أشياء في جيوبهم حسب علمي» قال الحصان.

«سأتركك إذًا، لا أجرؤ على القول أني معجب بهم. بالإضافة إلى أن الرجال البيض الذين لا يملكون مكانًا ينامون فيه يرجح أن يكونوا لصوصًا، وأنا لدي حمل كبير من أملاك الحكومة على ظهري. تعال أيها الغرّ لنعود إلى الكتيبة. تصبح على خير يا أستراليا! أراك في الاستعراض العسكري غدًا. تصبح على خير يا كوم التبن العجوز، حاول أن تسيطر على عواطفك من فضلك، تصبح على خير يا أبا ذيلين، إذا مررت بنا غدًا لا تصرخ، فذلك يفسد ترتيبنا».

انصرف البغل بيلي بمشية متبجحة كمحارب قديم، واقترب الحصان برأسه يتشمم صدري، فأعطيته بعض البسكويت، بينما أخبرته فيكسن، وهي كلبة متعجرفة للغاية، أكاذيب عن عشرات الخيول التي نعتني بها معًا، ثم قالت: «أنا ذاهبة إلى العرض غدًا في عربة الكلاب خاصتي، أين ستكون؟».

«على يسار السرية الثانية. أنا أضبط الإيقاع لكل الكتيبة، أيتها الآنسة الصغيرة» قال بأدب، «والآن علي أن أعود إلى ديك. ذيلي ملوث بالطين وسيكون أمامه ساعتان من العمل الشاق في تجهيزي للاستعراض».

أقيم الاستعراض العسكري للثلاثين ألف رجل ذاك المساء، وأنا وفيكسن كان لنا مكان جيد بقرب نائب الملك وحاكم أفغانستان، صاحب القبعة العالية السوداء المصنوعة من صوف الحمل مع نجمة

كبيرة من الألماس في المنتصف. كان الجو مشمسًا في النصف الأول من الاستعراض، وعبرت الفرق متتابعة، أرجلهم تتحرك معًا، وأسلحتهم على صف واحد، حتى زاغت أعيننا، ثم أتى الفرسان على نغم المعزوفة الجميلة «بوني دندي»، فأمالت فيكسن أذنها وهي جالسة في مقعدها على عربة الكلاب.

قدمت بعدها السرية الثانية من الرماحين، وهناك كان الحصان، ذيله يبدو كحرير مغزول، رأسه قريب من صدره، إحدى أذنيه مائلة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وكان يضبط الإيقاع لكل الكتيبة، ورجلاه تمضيان بتناسق كموسيقى الفالس.

ثم أتت المدافع، ورأيت أبا ذيلين وفيلين آخرين مصطفين يجرون مدفع حصار ثقيل، بينما مشى خلفهم عشرون زوجًا من الثيران، وكان للزوج السابع نير جديد وبدا عليهما التعب والتجهم.

أخيرًا كانت المدافع الجبلية، وكان بيلي يمشي كأنه قائد كل الفرق، وعتاده ملمع ومدهون بالزيت حتى أومض. حييت البغل بيلي بنفسي لكنه لم يستدر يمينًا أو شمالًا.

بدأ المطر يهطل مجددًا، وللحظة كانت كثافة الضباب تمنعنا من رؤية ما تفعله الفرق. لقد كونوا نصف دائرة كبيرة عبر السهل ثم بدؤوا يوسعونها إلى خط مستقيم. امتد ذلك الخط وكبر حتى أصبح طوله ثلاثة أرباع الميل من طرفه إلى الآخر. شكلوا جدارًا واحدًا متماسكًا من رجال وخيول وأسلحة. ثم بدأ الصف يتقدم مباشرة

باتجاه نائب الملك والأمير، وكلما اقترب أكثر كانت الأرض تهتز مثل سطح سفينة حين تعمل المحركات بسرعة.

من لم يكن هناك لن يستطيع أن يتخيل التأثير المخيف الذي أحدثه هذا التقدم الثابت للفرق على الجمهور رغم علمهم أنها مجرد استعراض. نظرتُ إلى الحاكم، حتى تلك اللحظة لم يظهر ما يدل على إحساسه بالدهشة أو غيرها، لكن عينيه بدأتا تتسعان أكثر فأكثر، والتقط حزام اللجام عن رقبة حصانه ونظر خلفه. للحظة بدا وكأنه سيستل سيفه ويشق به طريقًا عبر الرجال والنساء الإنكليز في العربات في الخلف. عندها توقف تقدم الصف تمامًا، وسكنت الأرض، وأدى كل الصف التحية، وبدأت ثلاثون فرقة تعزف معًا. بذلك اختتم الاستعراض، وبدأت الفرق تعود مجددًا إلى معسكراتها تحت المطر، وبدأت فرقة المشاة تهتف:

دخلت كل الحيوانات

اثنين اثنين

تا .. را را

دخلت كل الحيوانات

الفيلة والبغال

دخلت الفلك الكبير

كي تحتمي من المطر

تا .. را را

ثم سمعتُ قائدًا مسنًا أشيب طويل الشعر، قدم من آسيا الوسطى مع الحاكم، يسأل موظفًا محليًا: «إذًا، بأي طريقة تم القيام بهذا الشيء الرائع؟».

فأجاب الضابط: «أعطيت أوامر، وأطاعوا».

«لكن هل هذه الحيوانات ذكية كالبشر؟» قال القائد.

«إنهم مطيعون كما البشر، البغل والحصان والفيل والثور، كل منهم يطيع سائقه، والسائق يطيع الرقيب، والرقيب يطيع الملازم، والملازم يطيع النقيب، والنقيب يطيع الرائد، والرائد يطيع العقيد، والعقيد يطيع العميد الذي يرأس ثلاث فرق، والعميد يطيع اللواء، واللواء يطيع نائب الملك، الذي هو بدوره خادم للإمبراطورة، هكذا يتم الأمر».

«ليت الأمر كذلك في أفغانستان!» قال الزعيم، «فهناك لا نطيع إلا إرادتنا الخاصة».

«ولهذا السبب» قال الموظف المحلي، وهو يلف شاربه، «على حاكمك الذي لا تطيعه أن يأتي إلى هنا ويأخذ الأوامر من نائب الملك عندنا».

أغنية حيوانات المعسكر في الاستعراض

فيلة المدافع الكبيرة

لقد أعرنا للاسكندر قوة هرقل
وحكمة جباهنا وبراعة ركبنا
لقد أحنينا أعناقنا للخدمة، ولم نرخها قط ثانية
فافسحوا الطريق، لفرق الفيلة بطول عشرة أقدام
فافسحو الطريق لقطار المدافع الكبيرة

ثيران المدفعية

هؤلاء الأبطال بكلّ عدّتهم للحرب يخافون قذيفة مدفع
وما يعرفونه عن البارود يثير خوفهم
عندها نأتي نحن جارّين المدافع
فافسحوا الطريق لعشرين ثوراً مقرّنين بالنير
فافسحوا الطريق لقطار المدافع الكبيرة

خيول الفرسان

بحق الوسمة على كتفي فإن أعذب الألحان
يعزفها الرمّاحون، الهوساريون(*)، والجنود
أغنية بوني داندي التي أخبب عليها
وهي أعذب حتى من الاسطبلات والماء إلى نفسي
فأطعمونا وفرقونا وروضونا ونظفونا
وأعطونا خيّالة جيدين ومساحة كبيرة
واتركونا نمشي في سرية خيالة وانظروا
إلى خيول الحرب وهي تخبّ على إيقاع البوني داندي

كتيبة بغال المدافع الجبلية

فيما كنت ورفاقي نندفع للصعود على التل
أضعنا الطريق بين الأحجار المتدحرجة ولكننا استمرينا بالمسير
لأننا يا رفاقي نستطيع أن نتلوّى ونشق الطريق ونتسلّق
لنصل إلى أي مكان
فالمرتفعات الجبلية مسرّتنا،
حيث لا متسع سوى لقدم أو اثنين!
فالحظ حليف كل رقيب يدعنا نختار طريقنا

(*) Hussars الهوساريون : جندي من وحدة أوربية

ولا حظ مع كلّ السائسين ممن لم يحسنوا حزم المتاع
لأننا يا رفاقي نستطيع أن نتلوى ونشق الطريق ونتسلّق
لنصل لأي مكان.

جمال المؤن

نحن لا نملك أغنية جملية خاصة بنا
لنسير على إيقاعها
ولكن كل عنق من أعناقنا هو بوق:
رات-تا-تا!
وهذه هي أغنية مسيرتنا:
لا يمكن! لا تفعل! لن أسمح! لن يحدث!
فمرّر الأغنية على طول الصف
أحدهم أوقع متاعه من على ظهره
ليته كان أنا!
أحدهم انقلب متاعه على الطريق
فاهتفوا لوقفة وقتال
آآر! يآار! غرر! آرا!!
أحدهم يلتقطه الآن!

كل الحيوانات معاً

نحن أبناء المعسكر

نخدم كلّاً حسب رتبته

نحن أبناء النيّر والمهماز، الحِمل والسرج، الوتد والمتاع

انظروا إلى موكبنا على الأرض

يشبه حبلاً في الكاحل ينثني مجدداً

يمتدّ، يتلوّى، يتقدم بعيداً

مكتسحاً كل شيء في طريقه إلى الحرب

فيما الرجال الذين يمشون جانبنا

مغبّرين، صامتين، مثقلي العيون

لا يمكن أن نعرف نحن أو هم،

لماذا نسير ونعاني يوماً بعد يوم

نحن أبناء المعسكر

نخدم كلّاً حسب رتبته

نحن أبناء النيّر والمهماز، الحِمل والسرج، الوتد والمتاع

مكتبة
t.me/book4kid
مكتبة الطفل

"وبعيداً عن أي مقارنة محتملة، فإنه أكثر شاب واعد برز منذ ... ظهوري".

هكذا تحدث الروائي الكبير روبرت لويس ستيفينسون عن الروائي الشاب آنذاك روديارد كيبلينغ، بعد أن قرأ قصصه القصيرة التي جمعت إبان مقامه في الهند. لكن اسم كيبلينغ طار عالياً بعد أن كتب "كتاب الأدغال" التي نشرها من خلالها قصص متعددة حول ابن الذئاب ماوكلي على مدار عامين ١٨٩٤-١٨٩٥م.

ورغم تأثر نمط حياة كيبلينغ بالحقبة الفيكتورية، إلا أنه انتصر في كتاباته وبشكل مستمر لقوى الطبيعة والأرض الأم، لما تمثله الهند مقابل ما تمثله بريطانيا، قوى أكثر حماية للإنسان والحيوان والطبيعة من براثن الحضارة التي أثبتت مرة بعد الأخرى أنها لا تأتي دون مقابل.

"كتاب الأدغال" كتاب كل زمان وكل مكان، وأينما حط رحاله في يد قارئ، فسريعاً ما سيستقر في قلبه إلى الأبد.

طارق الخواجي، كاتب وناقد سعودي